

الفصل التاسع والستون

ما أصدر والى مصر إبراهيم باشا وما كتب من رسائل
ألف وواحد وثمانون رسالة إلى حاكم الصعيد أوزيك بك
والى كاشف الواحات وكاشف ولاية أبريم وحاكم ولاية بربرستان
وملك بلاد الفونج وملك قاقان، وما زرنا من قرى وقصبات
يسر الله لنا زيارتها

وإذا أراد الله شيئاً يسّر أسبابه فركبنا خيولنا المظهّمة وبدأنا سياحتنا وتحركنا من مصر
أم الدنيا، وبعد أن قطعنا فى الصحراء ساعتين جنوباً بلغنا بلدة البساتين وكانت تابعة
لألتزام نقيب الأشراف وفيها سبعمائة بيت، وثمانية محاريب وثلاث خطب، ووكالة
وعشرون دكاناً، ويحيطها من جوانبها الأربعة البساتين، ويقدم إليها الأعيان من مصر
للنزهة، إنها جميلة بها الورود والرياحين وفى وسطها قصر يوسف، والمتزهون ينعمون
بالمتعة على حانة حوضها.

ومضينا إلى الجنوب مدة نصف ساعة وهناك على النيل مرفأ قديم وبعيد عنه جميع
أهل الصعيد، وثمة موظف للدولة يحصل رسوم الجمرك من شاطئ النيل، فبلغنا:

قصبه موخنان

وتقع على مسيرة ربع ساعة من النيل فى الصحراء، وبها حدائق وبساتين وهى تابعة
لكاشفية الجيزة وبها خمسمائة بيت وجامع ومقهيان وعشرة دكاكين، ولا يوجد فيها
الحمام إنها قصبه معمورة، ويحكمها نائب الجيزة منذ عهد السلطان سليم تتبع هذه
القصبه شيخ العرب خبير أوغلو وهى أرض ذات بساتين ونخيل: وقصر خبير أوغلو دار
ضيافة، ويطعم فيها الغادى والرائح، ومن سلموا قايتباى وكرت باى مقيدين للسلطان
سليم من هذا البلد، وقد عبر أحد عشر ألف النيل ومضوا إلى السلطان سليم، وظلوا
فى خدمته ولذلك أعفوا من الضرائب، وهم الآن مطيعون متقادون فلما أغار على مدن
إقليم البحيرة ألف وأربعون ألفاً من مجرمى عرب بهيجة والهنادى منهم أربعون ألفاً
للنهب والسلب، ولما علم بذلك وزير مصر ألف جيشاً من خمسة آلاف فارس وانطلقوا

إلى إقليم البحيرة، وفي أول الأمر واجه كل جندي جندياً فمزق عرب خبير أغلو، صفوف من واجهوهم، كما أن جنود مصر الحقوا الهزيمة بعرب الهنادى فتم القضاء على ستين ألفاً منهم، واختلطت جثثهم بالرمال وتدرجت رؤسهم من ضربات السيوف، وأصيبت منهم غنائم تفوق الحد والحصر، كما أن رجال خبير أوغلو غنموا ألفى جمل وجاءوا بها في يوم وليلة من الصحراء، وقدموها هدية إلى إبراهيم باشا فامتلات مصر بالجمال، ونال خبير أوغلو مكافأة له على ذلك خلعة آصف، وهى رمز للمقاتل الباسل، وقد أكرمه إبراهيم باشا وضيغه ذات ليلة، وفي الصباح، أرسل إلينا خمسين فارساً، ومضيئا سبع ساعات على النيل وبلغنا منزل:

قهوه خانه

وهو أرض واسعة فيها قلعة ذات باب كبير وفي نهاية بابها الكبير مقهى، وهى موضع لاستراحة المسافرين، وبها دكان، إنها دار ضيافة فى الطريق إلى الفيوم وبنى سيف ولا عمران فيها، ومضيئا إلى الفيوم بعد سبع عشرة ساعة، وهى أرض ذات رمل كثيرة الأفاعى والحشرات، وليس بها أمان، إنها حدود خبير أوغلو زاده، وهى حد بلدة بنى سيف، ويجتمع أهل القرى فيها كل أسبوع، وهذه القهوة فى سوق عظيمة، وقد اجتزت هذا الموضع، وعلى شاطئ النيل فى الناحية القبلية أرض ذات نخيل وفيها قرى معمورة واجتزنا فى ست ساعات إلى:

منزل بلدة دلى حسين باشا

وتقع على شاطئ النيل على ربوة فى حدود بنى سيف، وبها مائة بيت وجامع وساقية وآبار، فاستقبلنا حسين باشا زاده نوح وضيغنا ليلة فنعمنا بالراحة، وسرنا متجهين جنوباً نحو النيل، واجتزنا كثيراً من القرى المعمورة على شاطئ النيل، كما اجتزنا:

بلدة زاوية وبلدة قوما دير

وبعد سبع ساعات بلغنا:

بلدة ميمونة

وهي على حدود بلدة بنى سيف، وفي التزام كاتب تذكرة الوزير الأعظم إسحاق أفندي، وبها جامع وعدة أسواق وقصر عالٍ هو دار ضيافة فاجتزتها نحو الجنوب واجتازنا قرى عامرة.

أوصاف مدينة سيف بن ذى يزن

ولذا سميت المدينة ببني سيف، وفي نواحيها تسكن قبيلة من عرب بنى سيف إنها كاشفية في أرض مصر، وهي الآن كشوفية، ويتبع كاشفها خمسمائة فارس وخمسمائة جندي مصري، وبها مائة وأربعون قرية، ويحصل من هذه القرى مائتا كيس وخمسة، و(١) أردب من الغلال وتودع ديوان مصر، وعين من قبل الباشا أغا للتحصيل، ويوزع الباشا على كل أحد أردبين من القمح كما أن أغا يأتي من طرف الباشا للتحصيل سريعاً وبها قاض شرعى يحصل منها على مائة كيس في العام، وتحت حكمه مائة وأربعون قرية، وثمة انكشارية وقائد وعزب الشورباجي وشيخ الإسلام ونقيب وأعيان كبار، تقع المدينة في سهل في أرض تبعد عن النيل بخمسمائة خطوة وهي ذات بيوت جدرانها مثل جدران القلاع تحيط بها من كل جانب، وبها خمسة آلاف بيت، وهي بيوت ذات طوابق وفيها قصر الكاشف وبه سبعون حجرة وحمام وديوان وميدان، وبجوار بيت الشيخ على بيت الشيخ صالح وبالقرب من القصر قصور طاصلاق زاده أحمد أغا، كما توجد بها قصور شامخة، ولكن هذا ما عرفناه منها وشاهدناه، وفيها محلات للمسلمين وغير المسلمين، وفيها جوامع وزوايا ولكن ستة منها جوامع تؤدي فيها صلاة الجمعة، وفي سوقها جامع قايتباي وجامع عز الدين لكل منهما حرم ومنازة، وبالقرب من قصر طاصلاق زاده أحمد أغا جامع لم يكتمل بناؤه ولكنه بدون حرم وله منارة على الطراز الرومي وله سبعة أعمدة من الرخام، وفوقها سقف لا نقوش فيه، وكان بانيه في كل يوم يبنى ملحقات تضاف إليه، وللجامع أوقاف عظيمة وغير منارته رومية الطرز له خمس منارات أخرى عربية الطرز، وتوجد مساجد علاوة على هذه (١) بياض في الأصل.

الجوامع، وبها كذلك ثلاث مدارس وبها إلى جانب حجرات الدراسة جامع وبها أربعون مكتبة للصبيان وأربعون سبيلاً وحمام، ولا توجد أبنية بقدر تلك المذكورة، ولجامع طاصلاق زاده أحمد آغا مبرّة، وكان متولى الوقف ينفق عليها عشرين كيساً، وقد قرأت الفاتحة له، وبها عشرُ مقاهٍ وعشرة بيوت للصباغة وعشر وكالات مشهورة وجملة ما فيها من الدكاكين خمسمائة دكان، ولكن ليس فيها سوق خاصة، وفيها من كل سلعة، ويسكن هذه البلدة عشرون ألف شخص، وجوها معتدل وفتيانها وفتياتها يتميزون بالجمال لاعتدال جوها، وبها كثيرون من العسكريين المدنيين، وبها سوق كبيرة تقام كل يوم جمعة، ومأكولاتها ومصوغاتها وغنمها مشهورة كما تصنع سجاجيد صلاة بديعة فيها، وبها سجاجيد وبُسُط بديعة النقش، كما تصنع بها مقاعد عجيبة، وفيها حدائق الليمون والسفرجل والتمر، وفي بساتينها الشمام والبطيخ والخيار والعجور والقثاء والكربب والقرنييط والقلقاس.

بيان ضرائح الأولياء التي زرتها

ضريح شيخ الملة وقطب الدولة الشيخ على بطح ملت الذى كان من قبائل العرب التي فى وادى بطح بمكة ولذلك سمي بهذا الاسم، ويزور ضريحه الرجال والنساء، وبجانبه منبع الأسرار ومرجع الأبرار الشيخ صالح الطيار، وإلى جانب الحمام من صحابة رسول الله ﷺ الشيخ عبد الله بن عمرو بن العاص الذى جرح فى البهنية أثناء إغارة عمرو بن العاص عليها، وعلى ضريحه تاريخ إلا أنه كتب بخط غير واضح، لذلك لم أتمكن من ذكره، وعلى مقربة منه ضريح حاضر أسرار الطريقة وناظر أنوار الحقيقة الشيخ محمد الأنورى، وبجانب الوكالة البيضاء ضريح الشيخة الست حورية، وبالقرب منها الشيخ على كِبَارِي، وقد زرت ضرائح هؤلاء الأقطاب جميعاً، ولكن ثمة كثير من الأولياء والأتقياء مدفون فى هذه المدينة قدس الله روحهم. وقد مكثت فى هذه البلدة ثلاثة أيام ثم تجاوزت عشرين قرية على شاطئ النيل جنوباً، وبعد ست ساعات بلغت:

قصبة فشنه

وهي على حدود بنى سيف وفي التزامها.

أوصاف قصبة فشنه

وهي قضاء يدر مائة وخمسين آقجه، ويتحصل منها في العام أربعة أكياس، ويتبعها ستون قرية، وهي قصبة صغيرة وجميلة، لكنها معمورة تقع على ربوة بعيدة عن النيل وفي جوانبها الأربعة سبعة أبواب خشبية كأنها أبواب القلعة، وبها ثلاثة آلاف بيت، وفي كل بيت منها برج للحمام ويحيط بها من جوانبها الأربعة نخيل، وفيها سبع محلات وسبعة محارِب وثلاثة منها جوامع، وفي السوق جامع كبير الأمير، مقام على اثنتي عشرة زاوية عليها أعمدة تحمل سقفاً وله قبة ومنارة قصيرة، وبها أربعة خانات وسبعة مكاتب للصبيان وعشرون دكاناً وسبعة سبل وسبع مقاه وليس فيها سوق ولا حمام، وبها دار ضيافة في أسفل الجامع، وبها يصرف الطعام للغادي والرائح كما يصرف العير والحياد للمسافرين، وتقام في يوم الجمعة سوق عظيمة بها، ويجتمع فيها خلق كثير وكل إنسان يبيع سلعة.

أوصاف ضرائح فشنه

ضريح الشيخ عبد الله قدوة الرجال ونقطة الكمال ابن الشيخ جلال، وكما أن هناك قبر للشيخ جودي، وبالقرب منها الشيخ الأمين سلطان الدنيا والدين، وبالقرب منه ضريح الشيخ أبو العال صاحب طريق الكمال والمجاهد بلا جدال، وبالقرب منه الشيخ رمضان قدس سره رحمة الله عليهم أجمعين، ولو وصفت سياحتي في هذه القرى والبلدان والقصبات والضرائح، وبفصاحتي وبلاغتي لتألف منها مجلد ضخيم، ولكني أصفها على وجه الإيجاز وهذا ما يسره الله لي، اللهم يسر لي إتمام ما أنا كاتبه.

ثم غادرت فشنه واجتزت اثنتي عشرة بلدة معمورة، وبلغت:

صفد أبوجرج

وهي أيضاً قرية وبعد سبع ساعات، مكثت في:

بلدة قيس

لأن الجو كان شديد الحرارة، وهى التزام يتبع بنى سيف بعيدة عن النيل، وبها مائة بيت، وبها آبار عذبٌ ماؤها، ونزلت ضيفًا على شيخ البلد لأن دار الضيافة كانت خربة، وفى شمال هذه البلدة ضريح الشيخ إبراهيم عبد الرحيم، وله مناقب كثيرة ورد ذكرها فى كتاب الطبقات للشعراوى إنه قطب عظيم، وبجانبه شجرة غريبة وعجيبة، إنها شجرة لا نظير لمثلها، ويأتى إليها الغادى والرائح من الزوار والتجار ويندهشون لرؤيتها.

وصف هذه الشجرة الغريبة العجيبة

إنها تبلغ فى الطول طول خمس قامات للإنسان، وثلاث خطوات، إنها دوحة عظيمة وجذعها يتألف من فصوص فى جوانبها الأربعة، ولمن ينظرون إليها من الوسط يبدو لهم أوراقًا وثمارًا، وإذا بَخَرُوا مريضًا بالصرع بأوراقها شفى من مرضه بمشيئة الله، ولها ثمر حامض الطعم ذات قشرة إذا أكل منها مرتين فى الشهر مصاب بالإسهال شفى بأمر الله ويأتىها أرباب الحاجات أول كل شهر، إنها شجرة سنط تَنَبَّتْ فى وسط الحديقة، وهى شجرة لا ثمر لها تنبت فى بلاد العرب، وهى تشبه شجرة طوبا التى توجد فى الجنة، وهى تمد غصونها ويجلس تحتها الصبيان والظلال التى تمدها تتسع لآلف إنسان، يا لها من حكمة عجيبة إنها منكسة، وجذورها بارزة من الأرض، ويقول الشيوخ الذين طعنوا فى السن إن آباءنا وأجدادنا رأوا هذه الشجرة على هذه الصفات إن غصونها اتجهت إلى أسفل إنها تستحق المشاهدة لأنها خلق عجيب إن الله على كل شيء قدير، ويفعل الله ما يشاء بقدرته ويحكم ما يريد ولا يسئل عما يفعل، ورأى بعض المتقدمين فى السن أنها من الكرامات للشيخ إبراهيم وقد أراد أهل البلدة أن يشاهدوا بها كرامات الشيخ إبراهيم فسجد فى الموضع الذى نبتت فيه الشجرة، فخلقها الله توكًا بأمر الله تعالى وإنها لم تنبت ولكن هبطت من السماء، وظلت معلقة فقدم جميع من أنكروا الإيمان، كما جاء فى تواريخ السيوطى عنها، وقد قرأت أنا فى تواريخ المقرئى أن فى جنوب مصر القاهرة بالصعيد العالى شجرة معلقة ولا وجود فى الأرض لمثلها، وفى

عصر بنى إسرائيل عمرت هذه الشجرة ألف سنة وقد عبد الله في ظلها سبعة أنبياء وأن سبعة من اليهود استشهدوا في ظلها وحينما دفنوا هناك بأمر الله ظهرت هذه الشجرة ونزلت أغصانها من السماء إلى الأرض، وقتلة اليهود أكلوا منها فهلكوا، وصار ساق الشجرة فصوصاً عندما جاء النبي آه واه، وقد دفن في ظلها هذا النبي، والآن يزورها الخواص والعوام لذلك فما كتب عنها صحيح، لأن ما جاء في الخطط يعتمد على مراجع صحيحة ولكنني شاهدت الشجرة فلم أجد في ظلها دفيناً من الأنبياء، وإنما دفن الشيخ إبراهيم في ظلها.

وتجولت سبع ساعات، نحو الجنوب على شاطئ النيل ومررت بقرى كثيرة وبلغت:

بلدة سمنوط^(١) بالصعيد

وهي تبعد عن النيل وبها ثلاثمائة بيت كما أنها التزام، وحاكمها الأسبق كان كاشفاً، وبها تتم حدود المنيا وإلى جوار ضريحه شجرة نبق عظيمة ولها نبق لذيد الطعم، وفي قبالة سمنوط على شاطئ النيل دير قبطى شديد الارتفاع وكنيسة كأنها قلعة عظيمة وفرعون بانيتها ويجتمع القبط لزيارتها، والرهبان يجمعون المال لخزينة مصر، وثمة صخرة يجرى النيل من تحتها والرهبان من أعلى هذه الصخرة يغترفون من ماء النيل ويملئون الصهاريج، ويضيفون المسافرين، ويكرمونهم إكراماً عظيماً، ويقدمون إلى الضيوف ثياباً ويقومون على خدمتهم حتى الصباح، وقد شاهدت هذا كذلك ومضينا إلى سملوط في الجهة الغربية، وركبنا جياندا ومررنا بقرى المنيا على شاطئ النيل وبعد ثمان ساعات بلغنا بلدة المنيا.

أوصاف مدينة المنيا

مدينة جرجا عاصمة الصعيد العالى، وهي حكومة تابعة للوزير، وقد أصبح اثنان من بكواتها أميرين للحج مرتين، ويحصل منها سنوياً مائتا كيس (٢) ألف أردب من الغلال ويحرسها مائة جندي وسبع فرق من جند مصر، ويفيض لها مائة كيس وثمة حاكم من قبل الوزير يكلف أغا في تحصيل غلالها، ويحصل لمعرفته (٣) ألف

(١) يقال لها: سمالوط.

(٢، ٣) بياض في الاصل.

أردب من الخنطة والشعير والفول، ويقدم إلى الباشا ستة أكياس، ويفيض له خمسة عشر كيساً ومركز الأغا أعلى رتبة ويأتى فى كل عام أغسا ليستعجل تحصيل الغلال وينال على ذلك أجراً قدره كيس واحد على استعجاله للغلال، وهو ملزم كذلك بتحصيل الغلال، وبها قاضى يحصل على ثلاثمائة أقبج، وشريف القضا يتقاضى عشرين أقبج، وفى نواحيها مائتان وعشرون بيتاً جميلاً، وفيها أربعة مفتين يفتون على المذاهب الأربعة ونقيب للأشراف وسبعة من القواد، وليس فيها عبيد ولا قائد ولا كتخدا سباهية ولا زعامت فى قراها ولا تيمارات ولا سيد فيها ولا رئيس للجند، أما طائفة الجند من المصريين فكثيرة؛ لأنها مدينة مزدحمة بالسكان، وعلى شاطئ النيل بيوت ذوات طوابق على ربوة يسكنها أسر كريمة وبها مائة وخمسون من الزوايا والمحارِب والجوامع، جامع قديم لعمر بن الخطاب لأن عمرو فى خلافة عمر بن الخطاب فتحها بعد أن تغلب على القبط، لما أقام عمرو هذا الجامع كان معبداً قديماً، إلا أنه كان فى عهد الفراعنة ديراً وهو واضح على سد عال على شاطئ النيل وطوله تسعون خطوة، وعرضه ستون خطوة، وبداخله اثنان وخمسون عموداً من الرخام، وحرمة مكشوف، وله ثلاثة أبواب ومنازة قصيرة وسقف منقوش، وتطل جميع نوافذه على النيل، ومحاربه منحرف نحو الركن، وهو من الخشب المنجور، ويزدحم فى الفجر بالمصلين لكنه مقر طلاب العلم، وتُلَقَى فيه الدروس العامة، وفيه أربعون أو خمسون حلقة تلقى فيها شتى العلوم، ويختم القرآن من مائة إلى مائتى مرة فى اليوم واللييلة، وثمة من حفظة القرآن من هم أكهون، وكأتما هذا الجامع هو جامع الأزهر فى مصر إنها مدينة طيبة الماء لها الشهرة عند العرب والعجم، وفيها يستجاب الدعاء، وبه مبرة أرقافها عظيمة وبه يُضَيَّفُ العلماء والفقراء والمساكين عمر الله هذا الجامع إلى انقراض الدوران^(١).

وعلى ربوة على شاطئ النيل كذلك جامع الظاهر ببيرس، ويقوم على ستة وثلاثين عموداً من الرخام، وفى سقفه نقوش مذهبة بدعية، ومحاربه ومنبره من الطراز القديم، ولكن جدرانها الأربعة من الحجر المكسو، وكأن كل جدار مرآة، ولا وجود لمثله فى

(١) معنى: إلى قيام الساعة.

أرض مصر، وكل الرحالة الذين يقدمون مصر يعجبون لأساس هذا الجامع لأنه كان في الأصل صومعة قديمة، وفيه نقوش بديعة من كل الأنواع ويعجز عن وصفه الواصفون، وفي مصر كثير من الجوامع التي أقامها السلاطين ولا وجود لمثلها في سائر أركان الأرض إلا أن جامع المنيا هذا يختلف عنها جميعاً لأنه في طرزه عجيبٌ غريبٌ منقطع النظر، وعلى قبة كتب هذا التاريخ (بسم الله الرحمن الرحيم أمر بتجديد هذا المسجد المبارك مولانا السلطان الملك الظاهر بيبرس خلد ملكه سنة عشرين وستمائة) وله بابان ومنارة وكل كواته تطل على النيل، ولكن لا وجود لما يشبه جامع عمرو.

ويقع شمال المدينة وفي السوق السلطانية جامع الشيخ مصرى، وهو تحتاني والمصلون فيه كثير، ويوجد كذلك جامعان لا علم لنا بهما فضلاً عن الزوايا.

وثمة ثلاث تكايا وإحدى عشرة وكالة وثلاثمائة دكان وحمامان، وعلى مقربة من جامع عمر بن الخطاب حمام منذ عهد فرعون بقي على ما هو عليه، إنه حمام قديم عجيب، وهو معلوم لدى العرب والعجم وإذا دخله مريض تم له بأمر الله الشفاء وإذا دخله مجزوم أربعون يوماً، فكأنما خرج من بطن أمه بيضة بيضاء حتى أن ابنة على بن أبي طالب العذراء قدمت مصر ودخلته فشفيت من مرضها، وهذا الحمام من بناء الحكماء القدماء وحوضه ذو صنوبر مرتفع بقدر قامة إنسان ويكون فيه الوقوف ويستحم واقفاً وإن لم يكن من الجص، وقد طلى بابه وجدرانه بالمسك والعنبر والزعفران، وجدرانه مبنية من الجبس الخالص والعبير ينعم بتنسمه كل من يستحمون فيه، وينبع من جدرانه ماء الورد والمسك والكافور يتنسمه المستحمون، وجوه معتدل لطيف لقربه من النيل وماؤه من النيل، وأرضيته مفروشة بالحجر الأبيض، وفي زمننا لا يستطيع عامل ماهر فينا أن يضع حجراً مثله في موضعه، وغرفة الثياب فيه صغيرة وغاية في الصغر، أما الحمام الذي في قصر أغا الغلال فحمام جديد إلا أن جوه ثقيل، وثمة أكثر من مائة سيبل، وستون مكتباً للصبان، ولا وجود لسوق فيها، وجميع أسواقها مغطاة لدفع الرمال والغبار وشدة الحر عنها، وفي الوسط قصورٌ فيها قصر الكاشف، وقصر أغا الغلال على ضفة النيل وهو قصر جميل، وكل قصورها وما فيها من شرفات ونوافذ

تطل على النيل، وهى قصور عالية يمتد منها البصر إلى الدنيا، وفى الجانب الغربى من هذه المدينة ستمائة قرية معمورة، وهى بلاد ذات بساتين كثيرة واسعة وجميلة لاعتدال جوها فأهلها يشتهرون بالجمال، وفتيانها حمر الخلود ومردانها يلبسون الحرير المنقوش، والجند فيها كثير، ويلبس فتيانها ونساؤها على ره وسهن حمر القلانس، ويربطون على خصورهن مناشف بيضاء ويضعون على وجوههن براقع من الشعر ويسمون الخبز المخبوز الأحمر بالرغيف وهو أحمر اللون كلون الوردة الحمراء، ومناشفها مشهورة وما أكثر الحدائق فيها، وتجاه النيل فى هذه المدينة آثار فرعونية كأنها أطلال قلعة.

وجاء فى بعض التواريخ أن الشيخ المصرى مدفون فى جامع المصرى، ولم يتيسر لى أن أزور ضريح آخر سوى هذا الضريح فى هذه البلدة.

ومضيت من هناك وسرتُ على شاطئ النيل نحو الجنوب، وبعد خمس ساعات بلغت:

مدينة أشمونين القديمة

وقد بناها أشمون بن بيطر أبى القبابط بن نوح، وفيها آثار وأطلال مغمورة فى الرمال، وإذا تعرضنا لوصفها لَمَسَّتِ الحاجةُ إلى مجلد كامل، وفى هذه البلدة ثلاثمائة بيت وجامعان وعدة دكاكين وهى تابعة لكشفية جرجا، وهى قضاء بدر مائة وخمسين أقجيه، وفى نهايتها أربعون قرية، وبها سوق تقام كل أسبوع هى قسبة صغيرة. وتجاوزتها، وبعد ثمان ساعات بلغت:

قسبة بداوى، أى بلدة ملوى

وهى تتبع حكم جرجا، وهى داخلة فى كشفية المنية وألحقت بها قضاء المنية، ويتحصل من قضااتها مائة وخمسون أقجيه فى الأحيان وبها ستون قرية ويحصل غلالها أغا غلال المنيا ولها قائد من طائفة الانكشارية وعدد من الانكشارية والعزب أما نقيها ففى المنيا وهى على شاطئ النيل على ربوة، وهى بلدة جميلة لأن النيل ينحرف جنوبها وقد عصفت الريح بكثير من بيوتها فهدمت وتخربت، فأقام أهلها بيوتاً لهم فى أرض واسعة بالقرب منها منذ خمسين عاماً، وهى بيوت جميلة وقصور شامخة، وهى أربعة آلاف وخمسمائة بيت ولا وجود فى الصعيد لمدينة جديدة جميلة مثلها، وجميع بيوتها

لها أبواب وجدرانها حمر وسود وبيض وكتب على كل منها اسم صاحب البيت، وتاريخ بنائه وفي هذه المحلة ست عشرة محلة وأربعون محراباً وخمس خطب، وفي السوق جامع يوسف بك يصعد إليه بسلم من ست درجات، وطوله وعرضه ستون خطوة وفي داخله ثلاثون عموداً من حجر أبيض تحمل سقفه، ومحرابه ومنبره خاليان من النقوش، وفي أطراف حرمه اثنان وعشرون عموداً، وله ثلاثة أبواب ومنازة ولا وجود لمنازة أخرى في تلك البلدة، وفي البلدة جامعان آخران علاوة على زاوية كما أن فيها حماماً وأربعمائة دكان على الطريق وصاحب هذا الجامع يوسف بك، وهذا الجامع وقف ليوسف بك، ومائة دكان تبرع بهما محمد بك حاكم جرجا، وكل الدكاكين مغطاة سطوحها، وشوارعها الرئيسية نظيفة يسقى به السقاءون ماء النيل وبها ثلاثة خانات وسبعة مكاتب للصبيان وسبع مقاه، وستة سبل وبيوت للعسكر وخمسون طاحونة مائة تديرها الخيول، وسبع طواحين للزيت، ولم أرَ فيها مخابز، إن جميع الأهالي في هذه البلدة يخبزون خبزهم في بيوتهم، يسكنها سبعة عشر ألف شخص، ولكنهم يحبون ويضيفون الغرباء، وفي جوانب المدينة الأربعة أبواب كأنها أبواب القلاع، وهي من الخشب، وعليها مزاعل، ومنها تطلق النار على المجرمين من العرب إذا أغاروا على المدينة، وفي كل ليلة يسد الحراس هذه الأبواب ويسلمون المفاتيح التي تخص أبواب المدينة إلى شيخ البلدة، إنها مدينة مستتب فيها الأمن وجوها معتدل، وأهل ملاوى مشهورون بالجمال، ومحصولاتها معروفة ومشهورة وصناعتها أعرقها السكر والسكر النبات، ولا وجود لمثله في أراضي مصر، ولكنه يأتي من الشام، وفي بساتينها عود قصب السكر يبلغ في الطول ثلاث قامات إنسان وهو في غلظ الذراع وكل أنبوبة فيه قدر شبر، وهو لذيذ كثير الماء، وقد قطعت أنبوبة منه وعصرتها في كوب فكانت مثل ماء الورد فكانت شراً يجدد الحياة وهو مفيد للجسم وقشره رقيق، ومجمل القول أنه لا وجود في أرض مصر لما في ملاوى من سكر وقصب السكر، وهذه البلدة واسعة الشهرة بذلك وفيها كذلك أشياء أخرى كثيرة، ولكن السكر هو أفضل ما فيها، ولكني لم أزر ضرائح كبار الأولياء فيها وإن كنت قرأت لهم سورة

يس، وتجاوزت مدينة ملاوى فى أرض ذات نخل، وانطلقت جنوبًا على شاطئ النيل، وبعد ثلاث ساعات بلغت بلدة: دارود الشريف.

أوصاف قصبة دارود شريف

إنها تابعة لحكم جرجا تتألف من ثمانمائة بيت وهى بلدة صغيرة معمورة، وناحية صنبو قضاء وغلالها مما أوقف فى مصر على الحرمين وهى فى التزام السادة الأشراف، فيها جامعان وست زوايا ومقهيان وثمانية دكاكين وقد حفر فيها يوسف الصديق وأمه جبريل بالمصاييح ترعة، وذلك قبل أن تصبح هذه التى بالفيوم ترعة كانت جرفًا وحوض يوسف وجميع ما فى مصر من ترع ومن خلدجان تطهر فى كل عام بالجواميس والثيران ومائة ألف من الرجال، وترعة دارود التى فى مدينة الفيوم لم تكن جرفًا ولكنها شوهدت فى موضعها، وهى تجرى نحو الغرب وتروى مئآت القرى وتمر من مدينة بهنيسا كما تسقى بلدانًا أخرى كثيرة، ورأيت فى جانب الفيوم بحر يوسف، وماؤه ملح إنه بحيرة عظيمة، وسوف نكتب عنها فى موضعها ثم عبرنا بلدة ترعة دارود، وتجولت ثلاث ساعات وبلغت قصبة صنبو.

أوصاف قصبة صنبو

إنها فى حكم جرجا، وفى التزام السادات، وفيها صوباشى تابع للوقف وبها مائة وخمسون قضاء، وبها سبع وستون قرية، ويتحصل لقاضيها ثلاثة أو أربعة أكياس فى العام، ونصيب البلدة عشرون ألف أردب من القمح والغلل، وتقع على ضفة النيل، بها ألف بيت وثلاثة جوامع وسبعة دكاكين وليس بها حمام، كما لا يوجد بها خان ولا حدائق إنها قصبة صغيرة، ولكن بها دار ضيافة للغادى والرائح، وفى قصر عظيم يقدم فيها للضيوف فطور وطعام مرتين فى اليوم، وللمسافرين بيت للشعير فقامت منها صباحًا ومضيت مدة أربع ساعات على شاطئ النيل شرقًا، ثم انعطفت على شاطئ النيل جنوبًا أربع ساعات أخرى لأن النيل ينحرف فى هذا الموضع وكأنه رقبة البعير، وهناك فى النيل جزر ذات غابات وتماسيح ولصوص يركبون القوارب، وتجولت فى هذه المدينة ثمانى ساعات وبلغت مدينة منفلوط.

أوصاف بنى لوط أى مدينة منفلوط

وهى من بناء أبناء لوط بن أبى القباط، ومدينة منفلوط مسطورة فى دفتر خانه جرجا والشائع خطأ على السنة العوام أن اسمها منفلوط وذلك سبب تسميتها بهذا الاسم وهى فى حكم جرجا باسم منفلوط، وهى مدينة قديمة ذات حكومة عظيمة، وقد منح وزير مصر حاكمها خلعة فاخرة، حتى فى يومنا هذا مصاحب أحمد بك يقدم هذه الخلعة وبها سبعة فرق مصرية من جنود مصر يحافظون على الأمن فى سبعائة وعشر من قراها ويحصل منها مائتا كيس من مال السلطان وعدة من الأرادب من الغلال ويتصدق بمائة كيس بعد المصاريف، لأن من الواحات وبلاد الفونج والسودان يأتى النحاسون بمائة ألف جمل وآلاف الخصيان السود والبيض من السودان، ويمنح كل أسير ديناراً ذهبياً ويمنح كل جمل قرش واحد، ويحصل من ذلك مال كثير، إنها مدينة يمر بها ناس كثيرة وكان قبل الباشا يحصل غلالها أغا الغلال، وكان يحكم البلاد ستة أشهر، وكان يتقاضى من الكاشف كيسين فى العام وحصانين وعدد عشرة من الخصيان الممالك هومتهم عشرة قروش، وهؤلاء يحصلون الغلال، ويأتى أغا كذلك يستعجل تحصيل الغلال وينال من الكاشف كيساً أجراً على مقدمه فيلح على تحصيل الغلال، وعلى كل أردب يحصل يأخذ الباشا أغا بارتين ويورد للوالى سبعة أكياس، ويبقى بعد ذلك فائض قدره سبعة أكياس إنها قضاء يدر ثلاثمائة كيس، ومن ثلاثمائة قرية يحصل القاضى افندى عشرين كيساً، وثمة قائد ونقيب وأعيان كبار، وعلى بعد ألف خطوة غرب النيل وعلى ضفة ترعة عظيمة ثمانية آلاف وستمائة بيت وهى من طوابق وهى جميلة مزينة، وفيها كثير من الفقراء المساكين وليس الأعيان بهذه الكثرة، ولكن التجار كثير، وفيها ثلاثون محلة وثمانية وثلاثون محراباً وثمانى خطب منها الجامع الفوقانى للسعيد الشهيد: محمد بك ويصعد إليه بسلم من عشرين درجة إنه جامع لم يتم بناءه، ولكن المصلين فيه كثير وليس له مثذنة ولا حرم، وتحت الجامع دكاكين ولكل سوق بابان، وفى وكالة محمد بك جامعه وقد بنى على زاوية كانت من قبل وقد أقيم هذا الجامع فى وسط السوق المزدحمة، ويصعد إليه بسلم من حجر، وجامع عثمان بك جامع عتيق

كبير، وطوله وعرضه خمسون خطوة وله سقف منقوش وله باب للقبلة ويابان في ناحيته وله منارة وخطبة ويسمى الشيخ جمال الدين ويقولون إنه من أولياء الله، وقد صام صوماً داوياً وقد تليقت منه الدعاء لى، وفي وسط السوق الجامع اليتيم، والجامع العتيق وجامع الكاشف محمد آغا، وهو جامع معلق يصعد إليه بسلم حجرى من ثمان درجات، ولذلك يسمونه الجامع المعلق إنه جامع صغير، وليس به منبر ولا مدرسة ولكن زواياه كثيرة، وله ستون سيلاً وسبعة وأربعون مكتباً للصبيان، ودار للحديث وثمانية خانات، وفي داخل السوق حمام إمام خان وفي السوق كذلك حمام ويوجد مثله فى ديار مصر، وعلى نهر النيل فى دمياط حمام، وهو جميل البناء إلى أبعد غاية وفى المدينة ألف دكان، وكلها مغطاة، وهذا خاص بديار العجم ولا وجود لسوق وإنما لخان تباع فيه السلع النادرة، وثمة سوق للغلال وسوق للغنم وخارج المدينة أحد عشر سوهاً، وعلاوة عليها سوق للنساء، وأسواق هذه البلد كلها تقع على ربوة، لأنها مرتفعة من نظر منها إلى أسفل دار رأسه وقد كتب على معظم الأبواب وأعلامها الآية الكريمة: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾ [آل عمران: ٩٧]. وسألت ما أصل هذه النقوش فقبل لى بعد إيتاء الزكاة من يخرجون لأداء فريضة الحج ثم يعودون فينقش النقاشون على بابه هذه النقوش والآيات، وكثير من هذه الأبواب يوضع عليها جلد التمساح خوفاً من اللصوص، وهذه الأبواب مثل أبواب القلعة عجيبة وغريبة، وجو هذه المدينة جميل ويبدو الشبان بوسامتهم هنا وهناك وحدائقها وبساتينها لا تحصى كثرة وعندما يفيض ماء النيل وتجرى مياهه فى التربة يجتمع على ضفتها جموع من الشباب للهو والمتعة فى العصر حتى مغيب الشمس، ووجوه أهلها وردية اللون، وهم يتاجرون فى الحرير والمناشف كما يباع على شاطئ النيل حرير القمصان وأشياء أخرى ويتمشون من ذلك، وفيها سبعون طاحونة زيت ومائة وعشرون طاحونة قمح وعشرون مقهى وحانة، وبها محلة لليهود وأخرى للقبط وللمسيحيين واليهود ثلاثمائة بيت، وللأرمن وللأوروبيين بيوت فيها وهم يأكلون الخبز فيه الينسون، والجن القريش والزبد الأبيض والكعك وفتائر البوريك، والعسل الأبيض المصفى والليمون والسفرجل والرمان والنبق وغير ذلك كثير، ولكن ليس هناك جميز ولا موز وهم يكرمون الضيف.

بيان بالضرائح فيها

ضريح الشيخ محمد زعفران، وهو إلى جوار الأسواق السلطانية، وضريح الشيخ محمد أنفاس المغربي، وهو بالقرب من المسجد، وضريح الشيخ محمد القبيح وهو بالقرب من جامع اليتيم، وبالقرب منه ضريح الشيخ عبد الكريم وفي الجانب الغربي ضريح الشيخ عباس وفي الجهة القبلية ضريح الشيخ سليمان سلماني، وبالقرب من قصر الكاشف مدفن الشيخ عثمان، وفي وسط المدينة الشيخ أبو الحسن، وعلاوة على ذلك توجد آلاف القبور وقد مرغت وجهى على هذه الضرائح وسألتهم البركات والعون، قدسنا الله بسرهم العزيز، ومن صلحاء الأمة أصحاب الكرامات الشيخ على سنارى، والشيخ محمد المنفلوطى كما وجدت قبور للطرارين والعيارين والمضحكين، ولكننا عرفنا الحافظين وأصحاب الكرامات ومن هؤلاء الذى حدد ميقات فتح القلعة بالساعة والدقيقة، وقبل أن تفتح بثمانية وخمسين يوماً، وقد روى فى الطريق يبشر به وهو من المجاذيب، وغادرت هذه المدينة بعد ثلاثة أيام، ومضيت جنوباً ست ساعات حتى بلغت مدينة أسيوط القديمة.

أوصاف مدينة أسيوط القديمة

أسيوط فى اللسان القبطى اسم كاهنٍ عُمِّرَ طويلاً وكان له حَظٌّ من جميع العلوم لأنه أدرك نبي الله إدريس - عليه السلام - وهذا الاسم فى أفواه العوام هو سيوط وفى الزمان الماضى كانت أسيوط قلعة قديمة ضرب عمرو عليها الحصار سبعة أشهر ثم فتحها فتحطمت أسوارها وبرجها، وأثارها ظاهرة للعيان كأنها شمس الضحى وهى مدينة حول جهاتها الأربعة أرض منخفضة، وهى كاشفية تتبع جرجا، وفيها ثلاثمائة جندى وثلاثمائة جندى مصرى من أربع فرق، ويتحصل من أربعمئة وعشرين قرية خمسة وثمانون كيساً وألف أردب من الغلال، ويحاسب عليها فى ديوان مصر ولها موظفان لاستعمالها وتحصيلها، وتجمع الغلال فى فترة تتراوح بين ستة وسبعة أشهر، وترسل إلى مصر فى السفن، كما أن الموظفين يحصل كل منهم على ثلاثة أكياس، وما يفيض من ذلك لا يرسل إلى الباشا، وهى قضاءٌ يدرُّ مائة وخمسين أقبه، وحواليها مائة قرية

وخمسة، ويحصل منها ثمانية أو تسعة أكياس، وفيها مفتى على المذاهب الأربعة وشيخ إسلام، وسبع طوائف للقواد والأعيان الكبار، وهى مدينة قديمة تقع على بعد ألفى قدم من شاطئ النيل وعلى ربوة عالية فى حدائق ونسجيل وفيها ستة وعشرون محراباً وتسعة جوامع يخطب لصلاة الجمعة فيها علاوة على المساجد، ولها جامع جديد بناه مير يوسف بك وطوله وعرضه خمسون خطوة، وفيه ستة وعشرون عموداً، وعليه سقف غير منقوش ومنارته من ثلاثة طوابق، وجامع أمية وهو جامع عتيق فى جانبه الأيسر باب يتزل منه بسلم من الحجر وطوله وعرضه ثمانون خطوة، وفى داخل الجامع ثمانون عموداً من الرخام وفى حرمة أربع شجرات نبق وأربع نخلات، ومنبره من الخشب المزين وعلى بابه كتب عليه بالخط الكوفى البسملة وآية الكرسي، وصاحب الخيرات الخليفة عمر وقت الفتح.

وقد عمر عام خمسمائة، وهو جامع عتيق ويقول البعض إن عمر لم يبنه إن بانيه عمر من الخلفاء الفاطميين الذى كان له المُلْك على مصر عام خمسمائة، والعهد على الراوى، وفى السوق جامع الحمصى وهو يقوم على ثمانى عشرة قاعدة من الرخام وله سقف منقوش وبابان جانبيان ومنارة جميلة من طابقين وجامع القاضى صدر الدين يقوم على اثنى عشر عموداً وهو جامع جديد مسقوف، وله بابان ومنارة وليس له حرم، وثمة زوايا إضافة إلى هذه الجوامع، توجد كذلك تكية وست مدارس، وسبعون سبيلاً وأربعون مكتباً للصبيان، ودار للقرآن وداران للحديث، وستة وكالات وحمام وهو حمام جميل معتدل الجو كما يوجد ثلاثمائة وستون دكاناً، ولا وجود لمحال للقماش فيها والصاغة فيها كثير، وفيها سبع عشرة مقهى، وأربعون طاحونة وخمسمائة طاحونة تدهرها الخيل ولا وجود لطواحين فى خارج المدينة لأن فى هذه المدينة خلقاً كثيراً، والقرى التى خارج المدينة فى حاجة إلى الطواحين، وكل هذه الطواحين تسمارات وزعامات، وفى سجلات شيخ البلد أن عدد سكان هذه المدينة مائة وستة وأربعون ألف شخص، وشوارعها وأزقتها مزدحمة بالناس، وقديماً كان بها قلعة ما زالت آثارها باقية، وقبل مجيء العثمانيين إلى مصر، كان حكام جرجا يحكمون هذا الإقليم مع وزيرهم

وفي هذا الزمان كان بها سبعة وعشرون ألف بيت وأربعة عشر حماماً، وقد رأيت زواياها، وحماماتها القديمة، وحول هذه المدينة رأيت سوراً له أبواب كأبواب القلاع، وكان لهذه الأبواب حراس ليلاً ونهاراً لأن حولها في الجانب الغربي كان يسكن مجرمون من العرب وكان هؤلاء العُربان يسكنون في المغارات، ولهم حظائر لخيولهم وكان فيها يسكن قوم لوط وفي هذه المدينة كهوف دفن فيها بعض الموتى، وفي هذه المدينة محلة للقطب ولا وجود لأحد من أديان أخرى إن هؤلاء يغدون ويروحون للتجارة ليس إلا، وتوجد فيها كنيسة، وجو هذه المدينة معتدل وفيها فتيان وقتيات يتسمون بالجمال، إنهم جميعاً يكرمون الغرباء ويحبونهم وهم من أهل التقوى، والدكاكين في هذه المدينة تقع في شارع واسع، ولا وجود لدكاكين في طريق إلا في الطريق العام، وفيها سوق سلطانية مغطاة لدفع شدة الحر، ولها الشهرة بالحرير الأبيض والمناشف والبن والغلات ومعظم الحرفيين فيها نساجون، ويأتى إليها كثير من أهل المغرب، ويحملون معهم أحمالاً من الحرير والكتان، ويحملونها إلى بلاد المغرب معهم.

بيان الضرائح التي في هذه المدينة

في الناحية الجنوبية لهذه المدينة، مقبرتان كبيرتان منهما ما يسمونها الجبانة الكبرى ويصنع أهل هذه المدينة لموتاهم توابيت من الجص الأبيض، ويكتبون عليها التاريخ، ويزرعون حولها الأشجار ويبيت كثير من الفقراء في هذه الجبانة ليدفعوا عنها الحيوانات، وعلى الطريق العام يوجد كثير من السبل، وآلاف القبور للصحابة الكرام، ويشهد أهل المدينة على أنه عند محاصرتها استشهد سبعمائة من الصحابة الكرام وأبنائهم ذوى الاحترام وقبورهم معلومة للجميع، وإذا ما كتبنا في هذا طال بنا الكلام، إنها قبور عظيمة وهي لهم، وفي داخل المدينة قبر الشيخ اسكندر، وجانب الجسر قبر الشيخ محمد المجذوب وبجواره الشيخ رودي، وهم من السادات الكرام رحمة الله عليهم أجمعين، ثم غادرنا أسبوط مع رفقاتنا وعبرنا الجسر السلطاني الواقع في الجهة الجنوبية، ومضينا في الصحراء.

بلدة شطب

وهى على حد قضاء أسيوط، وفيها ثلاثمائة بيت للمسلمين وقرى للأقباط، إنها بلدة قديمة تقع على جبل أحمر، وكان على قمة هذا الجبل فى ماضى الزمان قلعة وتبدو آثارها، وإلى الجانب الشرقى من الجبل مغارات وأرض خربة إذا بلغها الإنسان اعتراه الخوف الشديد، ويسمون تلك البلدة التى على رأس الجبل وادى طير.

أوصاف جبل الطير

ويسمونه كذلك جبل طليمون، إنه عجيب وغريب جدير بالمشاهدة إنه جبل عظيم يحار فيه الوصف، ويأتى إليه أنواع من الطيور من الروم فى فصل الربيع، ومكثنا على هذا الجبل، ونزلنا ضيوفاً على أهله ولكن ليس فيه طيور اللقلق والبجع، وتحت الجبل أرض صحراوية، وكانت الطيور تصيح طوال الليل إلى حد أنه يتأذى بأصواتها المستمعون إليها، ويعرف ذلك أهل تلك المدينة، وثمة مقبرة فوق هذا الجبل، وفى كل قبر طيور مدفونة فى كفن، وأكثرها طيور اللقلق المكفنة، وتأتى جميع الطيور إلى هذه المقبرة وهى ترفع أصواتها بالنواح، وتحوم حول هذه المقبرة وتزورها، كما أنها تمكث فى هذا الجبل، ومعظم هذه الطيور التى فى الأكفان تبدو من القبور وأجسامها لا تبلى فى أكفانها، ولا يعرف أحد شيئاً عن هذه الطيور المدفونة، وقد حملت طائرين مكفنين حديثاً إلى الكتخدإ إبراهيم باشا فرأهما، وعند الفجر ارتفع صوتهما بالصياح، وكان صياحهما يثير الفزع ويتوهم من يسمعهما أن الوقت وقت السحر.

وفى هذا الجبل غار عظيم، وتصيح الطيور عنده، وبعد أن تصيح سبع صيحات تحوم حول الغار ثم تمكث فى هذا الغار كأنها تتشاور فيما بينها، ثم يدخل طائر من كل جنس من الطيور هذا الغار ولا تخرج من هذا الغار المظلم بل تموت فيه وإذا لم تمُت هذه الطيور فى الغار امتنعت بقية الطيور عن الطيران، وإذا خرجت بعض الطيور من الغار فإنَّ الطيور الأخرى تنقرها وتقتلها، ويضعون غيرها فى الغار، وبعد أن تطلع الشمس، تغادر جميع الطيور هذا الجبل، وتصعد صيحة حزينة وتدور حول قمة هذا الجبل حتى مغيب الشمس، ثم تعبر النيل إلى بلاد الفونج، وتخرج من جزيرة مصر

هذه وتمضى نحو البحر المحيط جنوباً، وقد رأها البرتغاليون والهنود فى سفنهم ولا يعلم إلى أين تمضى بعد عبورها البحر المحيط، ولا يخرج من جزيرة مصر طائر اللقلق، ولكنها لا تفرخ على الساحل، لأن بيضها ينضج فى الحر، ولقد شهدت فى طريقى إلى مكة بيضة نعامة ذات مرة، وقد ثقبتها وأفرغت ما فيها لإحضارها إلى بلاد الروم إلا أن هذا الفرخ الذى خرج من البيضة طار من شدة الحر وقد زرت مقبرة الطيور ذات الأكفان، ومضيت إلى الغار المذكور، وكان غاراً عظيماً ولم يكن ظلامه دامساً، ولكن من جثث الطيور تصاعدت رائحة تفقد الإنسان وعيه، ورأيت جميع أنواع الطيور فى هذا الغار، وفى كل عام تأتى الطيور من جميع الأجناس إلى هذا الغار وتمضى هذه الطيور إلى أسوان والسودان وتعبّر البحر المحيط، وتعود إلى السواحل فى الربيع وتقوم حول هذا الجبل سبع مرات وهذه الطيور لا تنام ليلاً بل تمضى وتتهافت على هذا الغار، والله يعلم عدد هذه الطيور، وفى كل عام تبدى منظرًا عجيباً ويأتى أهل هذا الإقليم، ويمضون إلى هذا الغار ويذبحون كل طائر وهم يصنعون فى ذلك مثلما كان عليه آبائهم بحيث لا يبقى فى الغار طائر، وهم يعلمون أن الطائر منها إذا وقع فتلك أمانة على القحط، وكل إنسان يخزن متاعه على أن قحطاً عظيماً سوف يقع، وإذا صلب طائر سهل صيده وإذا صلب طائران أخذوا بيضهما، وإذا صلب ثلاثة طيور كانوا غنيمة، وإذا اقتربت من النيل بمقدار ستة عشر ذراعاً تحصل مال للدولة وإذا صلب أربعة طيور أترى جميع الملتزمين، وإذا صلب خمسة طيور أصبحت أفراد الرعية جميعها أمراء، وإذا صلب ستة طيور ارتفع النيل ستة وعشرين ذراعاً وكان فى كل سنبله مائة حبة، ويعجز الفلاحون عن حمل محصولاتهم من بيادهم وهذا معتقد الفلاحين فى الصعيد ويعجز الرعايا والأمناء والكاشفون أيضاً عن حمل محصولاتهم من البيادر، وتلك حكمة عجيبة وطلاسم قديمة وسحر، والحمد لله أننا رأينا هذا المنظر العجيب فى سياحتنا وتجاوزنا هذه المحلة وانطلقنا جنوباً وبعد ست ساعات بلغنا قسبة أبو تيج.

أوصاف قسبة أبو تيج

إنها كاشفية تابعة لحكم جرجا، وبها مائتا قرية يتحصل منها سبعون كيباً وعشرون ألف أردب من الغلال، ويحاسب عليها فى ديوان جرجا، ويقيم أغصان الغلال

فى جرجا، وليس فيها عسكر ولا مفتى ولا نقيب، وهى قضاء يغل مائة وخمسين أقبه، وفى ناحيتها ثمانون قرية، وهذه القرى تلحق بقاضيها ويتحصل منها على خمسة أكياس فى العام، وبها ألف بيت وسبعة محاريب وثلاثة جوامع وستة مكاتب للصبيان وخمسون سوقاً صغيرة إنها قسبة صغيرة اقتضت حكمة الله أن أنزل ضيفاً على دار ضيافة كاشفها، وفى الضفة المقابلة للنيل قبيلة أبى يحيى بها ستة آلاف فارس وجند يركبون الجمال وقد حاصروا دار الضيافة التى كنت بها ونشب القتال وبدأوا فى إطلاق رصاص بنادقهم وفى دار ضيافتنا هذه وقف عشرة من الجند التابعون لإبراهيم باشا وثلاثة وعشرون من جند الكاشف وسبعة جنود ممن معنا ووقفوا جميعاً وراء ثقوب المزاغل وأطلق الرصاص عليهم فقتل ستة عشر من العرب وسبعة جياذ وقدم فرسانهم إلى قصبتنا، وكان معنا سبعون فارساً فخرجنا من دار الضيافة ووقعت مناوشات بين الطرفين وقد قتل من العرب ستة وعشرون كما قتل فى دار الضيافة اثنان وأربعون من العرب وقد تدرجت رءوسهم، وتعلق بفتيم بأذيال الفرار وكثير منهم غرقوا فى النيل وغنمنا منهم سبعين جواداً وسبعة حُجُور^(١) وأحد عشر هجيناً ووقع فى الأسر ثلاثة عشر عربياً واستشهد منا سبعة من العرب ونفق جوادان وقتل جندى من جنود الباشا وثلاثة من رجال الكاشف وأمام دار الضيافة وضع اثنان من العرب على الخازوق ووضعت رأسهما على رمح وحشى جلدهما بالقش ويعث بهما فى موكب إلى جرجا، وقد وهبى الكاشف ثلاثة حجور وهجيناً، وقد مضيت مع الجند إلى جرجا فى الموكب وتجاوزناها إلى:

بلدة شيخ ابن عابد

وهو من المشايخ المطيعين للسلطان سليم، وتسمى هذه القبيلة قبيلة الهوارة وخيول مصر فى هذه القبائل إنهم عشرة عشائر وقبائل، ورجالها شجعان ولهم ثمانية آلاف جندى وأرضهم كثيرة المحاصيل ولهم خمسمائة بيت وجامع ودار ضيافة، وللشيخ عابد بها قصر عظيم، وثمة ضريح للشيخ ابن منجا وفى كل ليلة جمعة يزور الشيخ ابن عابد ضريح الشيخ ابن منجا ويقوم له المولد الشريف، ويضيف الفقراء والمساكين ومنحتى

(١) الحِجْرُ: أنثى الخيل، والجمع: حُجُورٌ وأحجَارٌ انظر: المعجم الوجيز ص ١٣٦.

قبيلة الهوارة مهراً ومضيت إلى شاطئ النيل ثانية، والنيل في تلك الناحية واسع وفيه جزر، وفي كل جزيرة غابة وهناك في النيل تماسيح وأفراس النهر، وإذا فاض النيل انشعب من النيل ترعة في الرمل وهي ترعة عظيمة، وفيها تجرى مياه النيل، وبهذا الماء ترتوي آلاف القرى وفي هذه الترعة عمود عليه طلسم ضد التماسيح ولذلك تخاف التماسيح دخول هذه الترعة. فإذا دخلها تماسح نفق وانقلب على ظهره على وجه الماء، وهناك التماسيح تأكل الجثث التي في الطين وصغار الأحجار وتصعد من قاع النيل جثث التماسيح بين الجزر بعد أربعين يوماً ويمضي أهل تلك القرى وأولادهم إلى شاطئ النيل وهم آمنون لا يخافون شيئاً، ويشربون من مائه، ويمضي الرجال والنساء إلى ساحل النيل، ويضربون ماء النيل بعصى غلاظ.

والتماسيح تخطف خيولهم وجمالهم وتصعد الجزر وتأكلها، إنه حيوان لعين ويدها وقدماه ضعيفة وهو يتلع الرجال والأطفال، أما إذا دخل التماسح ترعة الرمل نفق في التو من أثر الطلاسم التي في الترعة، والفلاحون يخلون جسمه من جلده ويصنعون من جلده قوارب يعبرون بها الترعة ومضيها سبع ساعات جنوباً وعلى بعد من النيل قصبة تمه.

أوصاف قصبة تمه (طما)

إنها التزام تابع لجرجا، وبها خمسمائة بيت وجامعان ومقهى وبها سوق عظيمة ودار ضيافتها قصر كبير، وفيها حدائق هنا وهناك وبها ساقية وزاوية، وتجاوزناها إلى أرض ذات نخيل وبعد خمس ساعات بلغنا قصبة تحت (طهطا).

أوصاف قصبة تحت (طهطا)

بنت في عهد العباسيين إنها تابعة لجرجا وتحصل منها ثلاثون كيساً وثلاثة آلاف أردب من الغلال وفيها من الجند ثلاثمائة. إنها كاشفية وليس فيها طوائف عسكرية ولا شيخ إسلام ولا نقيب أشرف ولا قواد، وهي قضاء يدر مائة وخمسين أفجه، وسبق أن تحصل من مائة وخمسين قرية فيها عشرة أكياس، وأغا استعجال الغلال بها مقيم في جرجا.

وهي تقع على ربوة بالقرب من شاطئ النيل، وهي ليست قصبة كثيرة السكان أما

قديمًا فكانت معمورة وآثار مبانيها ظاهرة، وفيها الآن ألفى بيت وعشرون محلة وسبعون محرابًا وتسع خطب وتكيتان وحمام مظلم قدر ومائة سوق صغيرة وثلاث وكالات وثلاث مقاه، وعشرون سيلاً، وفيها ثلاث منارات ظاهرة إضافة إلى الزوايا التي ليس لها منارات، وهذه البلدة ثقيل وخمٌ جوها، وأهلها فقراء، وبالقرب من البلدة فى النيل جزر، ويضللُ الإنسان فى شوارعها كما أن فيها كثير من التماسيح، وبعض الفتيان يقتلون هذه التماسيح وينصبون جلودها على الأبواب دفناً للصوص، وأكثر الأبواب فيها عليها جلود التماسيح، وقد دفن فى أرضها أولياء.

الأولياء المدفونون فى أرض تلك البلدة

فى خارج المدينة قدوة الرجال ونقطة الكمال الشيخ أحمد الفرغل ولقد أظهر من كراماته الكثير، إنه قطب عظيم، كما زرت الضرائح التى فى المقبرة التى تجاوز ضريحه ومضيت فى البستان القريب منه، وهو كثير النخيل، وكان الجو شديد الحرارة.

أوصاف حكومة بلدة الجزيرة

إنها فى جرجا ولها ثلاثمائة تابع، تغل مائتى كيس، ويتحصل من قراها عشرون كيساً وعشرة آلاف أردب من الغلال، وحسابها فى ديوان جرجا، وهى قضاء يدر مائة وخمسين أقبه فى كل مدة ثلاثمائة كيس يحصلها وليس لها عسكر من سبع فرق، ولا يوجد بها أغا للغلال ولا نقيب ولا مفتى إنها قسبة يسكنها الكاشف، وليس فيها إلا جامع ومقهى ومبرة وسوق ولكن فيها كثير من الضرائح، وأسماء أصحابها لا ترد على خاطرى، ولقد قرأت لأرواحهم سورة يس، وهبت ثوابها لأرواحهم الطاهرة، تقبلها الله تعالى، ثم ركنت إلى الراحة ساعتين وبعد زوال الحر فى وقت الزوال قمنا ومضينا لمدة ثلاث ساعات وبلغنا سوهاج.

أوصاف قسبة سوهاج

إنها فى حكم جرجا، ويتحصل منها خمسون كيساً وألف أردب من الغلال، وتضم ثلاثمائة قرية، وهى تمد جرجا بالغلال وأغا غلالها يقيم فى جرجا، ولقراها الستين

قاضي شرعي، ويتحصل منها عشرة أكياس في العام، ولقربها من جرجا ليس لها عسكر من سبع فرق ولا مفتى ولا نقيب إنها قسبة جميلة قائمة على ربوة رملية بها بيوت ذات أسوار كأنها أسوار القلاع، وبيوتها ألفان ومائة وستون بيتاً من كبير وصغير وهي بيوت متعددة الطوابق وبها ست عشرة محلة، وستة جوامع، وخارج هذه البلدة من الناحية القبلية جامع السلطان أكراد وطوله وعرضه خمسون خطوة، وبه اثنان وثلاثون عموداً وعلى يسرة هذا الجامع على بعد عشرة خُطى منارة عالية جميلة، وللجامع بابان جانبيان وباب للقبلة، وبالقرب من قصر الكاشف جامع السلطان أيك التركماني، وفيه سبعة أعمدة منقوشة تحمل سقفاً منقوشاً ومنارة مُنهدمة، إنه جامع قديم، وهي عجيبة الشكل، ولم نشاهد جوامع أخرى، وبها خمسون محراباً مع الزوايا وثلاث تكايا بدوية وسبعة علوية وثمانية برهانية، وفي سبع زوايا مدارس، وبها عشرون سيلاً عذبة الماء واثنا عشر مكتباً للصبيان وست وكالات وستة خانات منها خان سليم الكاشف وخان كشك أوغلي، كما أن فيها حمام ومائة دكان ولا وجود فيها لسوق للحريز، وبيوتها بهذا القدر وهي قليلة العمران وليس بها قصور عظيمة، والفقراء فيها كثير، ومئات النخيل، والحدائق فيها قليلة وإذا ما اشتدت بها الريح ثار الغبار، وخبزها جيد كما أن شمامها طيب وبساتينها كثيرة وأرضها خصبة وإن الكيلة تغل خمسين كيلة من الغلال وفولها وفير.

بيان زيارتنا لقطبها العظيم

هو الفاضل العالم أبو القاسم، وقبره يزوره الناس ليل نهار، وخرجنا من هذه البلدة وعبرنا النيل ومضينا شرقاً وغرباً وجنوباً وشمالاً، وذلك لأن تخطى الترع والحلجان كان مستحيلاً، لذلك اتجهنا في الطريق يميناً وشمالاً، وتحملنا مشقة شديدة طوال سبع ساعات وبلغنا قسبة المنشية.

أوصاف قسبة المنشية

يحكمها كاشف وبها مائتا قرية ويتحصل منها ستون كيساً واحد عشر أردباً من الغلال، ولها من التوابع مائة، وليس بها عسكر من فرق أربع ولا مفتى ولا نقيب

وأعيان أشراف وأغا الغلال يسكن جرجا، وهي تضم سبعا وستين قرية، وعلى بعد خمسمائة خطوة من النيل ألفا بيت وسبعة عشر محراباً وثلاثة خطب إنها قسبة جميلة، وفي سوقها جامع السلطان محمد أكراد وطوله وعرضه أربعون خطوة، وفي أركان جرمه الأربعة أعملة وفي داخل الجامع اثنان وثلاثون عموداً تحمل سقفاً مزخرفاً وبه ثلاثة محاريب وعلى باب منبره الخشبي كتب تاريخ هو:

(أمر بإنشاء هذا المنبر المبارك محمد بن أبي بكر في شهر رجب سنة أربع وثلاثين وسبعمئة)

هذا هو محمد أكراد الذي أقام على قبر الإمام الشافعي في مصر قبة وهو مدفون إلى جانب الإمام الشافعي، وليس في هذه البلدة جامع كبير سوى هذا الجامع علاوة على المساجد المعمورة فيها كما أن فيها حماماً وخانين وسبعة أسبلة، وثلاثة مكاتب للصبيان وماتى دكان وسبعة مقاه، وجمال جوها يشبه جو حدائق أرض الروم، وأهلها يحبون الغرباء ويكرمونهم، وغادرناها وانطلقنا جنوباً على ضفة النيل واجتازنا مزارع وبساتين الشام، وبعيداً عن النيل أرض ذات نخيل، وقرى وحدائق وساقية، وعبرنا زوايا بها أشجار وارفة.

أوصاف مدينة عظيمة هي عاصمة الصعيد القديمة وهي مدينة جرجا

اسمها مدينة دهليز حبش وبانيها هو طوطش بن أبى القباطية بعد الطوفان وهي مدينة عامرة عظيمة، ثم آل الحكم بعده إلى ابنه جرجيس وقد أنشأ مدينة جرجا وكان شداد هو بانيتها لقد كانت حديقة إرم، ولذلك وقع الخطأ في اسم هذه المدينة فقالوا جرجا والصواب أن يقال جرجيس وهي تغل ستة أحمال من المال للسلطان وهي ملحقة بالخدمة السلطانية مع مكة والمدينة وآستانه، ومنها أمير الحاج، وله منصب عظيم وكل قرى جرجا عامرة ولكن ألفاً وخمسة وسبعين من قراها خاصة بغلال الدولة، وهذه القرى تغل في العام ثمانين ألف أردب من الغلال، ولكن جرجا تدر مائة وستة وثلاثين ألف أردب من الغلال، ويفيض لوالى مصر مائة وثمانون ألف أردب علاوة على ما يدخل تحت حكم جرجا، أما من القرى التي في الإقليم فيحصل منها مائة وأربعون باره

إنها بلدة وفيرة الغلال، ويحصلها ضابط الحاكم وهي وقف، ويجرى منها الرواتب على جامع الأزهر وغيره من السلاطين، وأمير ميران جرجا يضع يده على هذه الأوقاف أما إذا ما ظلم ففي اليوم الثالث يعترض على ظلمه علماء مصر ليمنعوا الظلم، وليس في إقليم جرجا تيمارات ولا زعامات، إنها قرى سلطانية وأوقاف، ويبقى لحاكم جرجا بعد المصروفات ثلاثمائة كيس ولكن حاكم جرجا المغفور له على بك تحصل لنفسه على مئات الآلاف من القروش لنفسه فرضها على الأهالي، وهذا صحيح لأننا نظرنا في دفتر خانة جرجا وفي الإيرادات والمصروفات، لأن في إقليم جرجا سبعة وثلاثون كاشفاً وفي إقليم جرجا واحد وثلاثون قضاء، وبها ستة آلاف ومائة وسبعون قرية عامرة، ولكن حسب حساب قرى الأوقاف، ويأتي مشايخ العرب إلى ديوان جرجا مرة في العام ويجددون بيعتهم لحاكم جرجا، ويلبسون الخلع والثياب الحريرية، ويحصلون المال السلطاني الخاص بالعسكر، وينال شيوخ العرب هؤلاء من هذه القرى أحد عشر ألف رأس من الغنم ومائة ألف أردب من الشعير وخمسين ألف أردب من القمح وأربعين ألف أردب من البقلة، كما يقدمون إلى الحاكم الهدايا.

وقد تجمع للحاكم عشرون ألف أردب من القمح وأربعون ألف أردب من الشعير وزعها على الجند، أما ما تبقى من هذه الغلال فقد باعها، وطبق قانون السلف يقدم خمسمائة جواد من إقليمه، ويرسل كذلك من الهدايا ألف وخمسمائة جواد وسبعمائة أو ثمانمائة قافلة من الجمال ولتحصيل هذه الغلال يأتي في كل عام خمسة آلاف حمار، ولجرف الترع والخلجان يأتي ألفا ثور، ومائتان من الخصيان وألف من المماليك غير السود كما ترد هدايا لا حصر لها، ورؤساء القبائل وشيوخ العرب وشيوخ البلدان، وجميع الكاشفين وبقية الأعيان يأخذون هذه الهدايا، وفي كل عام يأتي مالٌ وفير بلا حساب، أما المصروفات فهي خارجة عن الحساب ويتسلم باشا مصر كل عام سبعين كيساً وأربعين من الخيل ومن هذه الخيول ما هو مُحلَّى بالذهب وذهبي السلاسل وأربعين مملوكاً أسود وعشرة من الأحباش وهؤلاء المماليك جميعاً في ثياب فاخرة، ويأتي مع هؤلاء الهدايا من ماء السورد والمسك والعنبر والكافور وسن الفيل وجلد التمساح، وآلة

الحرب، هذا كله ما يأتي على الترتيب لهؤلاء الغلمان السود ولهم كذلك عشرون جارية من بلاد الفونج إنهم يأتون فقراء خالين الوفاض ولكنهم يثرون بتلك الهدايا ومائة جمل بلدى وألف أردب من القمح، وألف أردب من عدس وألف أردب من قريك، وألف أردب من شعير، ويسلم هذا كله إلى باشا الغلال، وألف رأس من الغنم، وألف رأس من الحملان تصل إلى وكيل الخراج، ولو كيل الباشا فى كل عام عشرون كيساً، وعشرة خيول، وعشرة من العرب، وخمسة من الطواشى، وخمسة جمال، وكلها تحمل السكر والعدس والبُنُّ، كما تصل هدايا لا حصر لها إلى افندى الديوان ووزير مصر وسبعة عشر قائداً، والحكام باشى والمشعل باشى، هؤلاء ينالون هدايا لا تدخل تحت حصر، وفضلاً عن هذه الهدايا يتسلمون العيدية، كما تصرف رواتب وتعيينات إلى أصحاب المناصب ورجال الديوان والقواد وطوائف الجند المصريين فى جرجا ومن يتبعهم من جند الحراسة والأئمة والخطباء والمشايخ وتصل فى كل عام إليهم أربعة آلاف رأس من الغنم وهشرون ألف أردب من حنطة وأربعمائة ألف أردب من شعير، وفى كل يوم لهم عشرون ألف رغيف، يزن كل رغيف تسعة دراهم، وألف قنطار من الزيت وسبعون قنطاراً من العسل ومائتا حقية من البن ومائة سفينة خشبية، وآلاف من أحمال الجمال وهذه القرى هى التى تقدم هذه التعيينات وينال الجندى ثلاثمائة كيس علوفة، والجندى ينال مرتباً شهرياً قدره مائة قرش وحامل البندقية خمسة قروش مرتباً شهرياً، ورئيس الفرقة يتقاضى ألفى قرش وخمسة جياذ فى العام، وعشرون من رؤساء الفرق ينالون ألف قرش وجوادين، أما الأوده باشية فيصرف لهم خمسمائة قرش وجواد واحد، كما يبذل العطاء للخدم وبناء على ذلك فإن نفقات وزير مصر ربما زاد عليها نفقات حاكم من الحكام، وهذا مقيد فى دهليز جرجا، وهو ديوان عظيم، وكل ما فى مصر من أرباب الديوان قدرهم فى ديوان جرجا وفيه أصحاب المناصب ولكن جميع كتاب الديوان من القبط لأن لهم عقل أرسطو، إنهم يشقون الشعرة دقة منهم ويحسبون أصغر الجزئيات فى الحساب فى قدرة ومهارة، وخلاصة القول طبق قانون السلطان سليم فلحاكم جرجا هذه الكيفية فى تدبير الأمور، ويكون الحساب قيراطاً قيراطاً ولكن هذا

المال الوفير يحصله الجند بالعنف، لأن الإقليم الكبير قد يكون أهله متمردين، والأموال التي في ذمة العرب يحصلها منهم جيوش جرجا، والجند يطلعون على شأن كل بيت من بيوت القرى، وهم يحصلون منهم الغلال دون خوف منهم، ولا خشية ولا اكتراث بهم فين هؤلاء العرب فتیان شجعان أولو بأس شديد ويسمون هؤلاء العرب الصبيان، وفي ديارهم مال كثير لأن بلادهم على حدود بلاد الفونج وعلى الجانب الشرقي من هذه البلاد يكون المسير على شاطئ النيل إلى بلاد الحبشة وعلى مسيرة شهرين جنوباً بلاد البربر إن آخر قلعة على حدود مصر على مسيرة ثلاثة أشهر في الصحراء بلاد الفونج، وثمة ولاية قرمانقه ومنها وعلى مسيرة شهر بلاد السودان، وفي الجانب الغربي على مسيرة ثلاثة أشهر بلاد فاس ومرانكوش وهذه البلاد خاضعة لحكم جرجا وأرض ملاصقة لحدود المغرب وطرابلس، والحاصل أن ولاية جرجا في الإقليم الأول وله علاقة بالإقليم الثاني، إنها واسعة مترامية الأرجاء وغلاتها وفيرة وأهلها محبوبون وخيراتهم وبركاتهم كثيرة، ونهر النيل في جرجا يجري في ترعها ماؤه عذب فرات، إنها أرض ملكية ما يسميه الغرب دهليز الحبش، ومعناه العرش الصغير لبلاد الحبشة، والعرب يملكون هذه الأرض الصحراوية، وقد حررنا هذا في قضاء بني سيف وسنحرر الباقي عند سياحتنا في بلاد أخرى، ولوزير جرجا أغا عالي المنصب، وهو يأتي لتحصيل الغلال، ويسكن قصرًا شامخًا في جرجا، وهو يلح في طلب هذه الغلال، ثم تخزن هذه الغلال بعد تحصيلها في مخازن على شاطئ النيل، ويأتي من مصر أغا المخزن ليحصلها في ألف سفينة، وفي مصر العتيقة توضع في مخزن يسمى مخزن يوسف، وأكوامها كأنها الجبال وينال منها جميع الجند جرايتهم وطوال ثلاثة أشهر، ومخزن يوسف هذا سر إلهي وللأغا محصل الغلال حمام وجوادان والأغا ينال على كل أردب بارتين ويأخذ عشرين كيسًا في السنة ويسلم الباقي للباشا وهو خمسة أكياس ويمنح الكتخدا ويأخذ الكتخدا ثلاثمائة قرش ويأخذ الكتخدا من الباشا جوادًا على كل ثلاثة جواد وخصيبا على كل ثلاثة من الخصبان، وهذا الأغا يأتي كذلك لاستعجال تحصيل الغلال، ويأخذ على ذلك كيسًا من المال وغلامًا أسود؛ وذلك لتحصيله للغلال ولا يأتي

جنود من استانبول إلى جرجا ولكن يأتي إليها من مصر الجند المعروفون بقبوقولو أى جند الباب وقائد الانكشارية وقائد العزب وجند من الخمس فرق لحراستها وتنظيمها، ولا وجود فيها لقائد انكشارية استانبول ولا نائبه، بل يرسلون جندياً غير مرضى^{٥٦} عنه من استانبول إلى مصر وفيها شيخ الإسلام على المذاهب الأربعة ونقيب الأشراف، ومحصلوها فى العام عشرة أكياس ويستبعها مائة وثمانون قرية وفيها كثير من الأعيان والأشراف والتجار والملاحين والتجارين.

وئمة مرفق يسمونه مرفق القصير خلف الجبال على أنه ميناء مكة والمدينة فى السفن ولذلك كان معظم أهل جرجا من التجار والفلاحين.

وبما أن جرجا تقع فى وسط الإقليم الثانى فأرضها على عشرين درجة وسبعة وعشرين دقيقة وطول نهارها ثلاث عشرة ساعة وخمس عشرة دقيقة، وئمة أرض واسعة خالية بين جرجا وبين قلعة طولها ألف خطوة بعيدة عن غرب النيل وفى جوانبها الأربعة عشرون باباً من خشب ولا خندق لها وعلى كل باب حارس ويوجد كل باب ليلاً، وبها قصور مكسوة بالجص وحدائق وساقية وحوض وشاذروان وجدران القصور مزينة وبها عشرة آلاف وثمانية وسبعون بيتاً بين كبير وصغير، وبها تسع محلات وثلاثة وخمسون محراباً وأحد عشر جامعاً تؤدى فيه صلاة الجمعة إضافة إلى جوامع السلاطين جامع الميرميران، وفى السوق جامع طوله وعرضه ستون خطوة وهو يسمى جفور جامع، وبه ثمانية عشر عموداً فى أطراف حرمه، عليها سقف منقوش وليس له قبة وعلى باب منبره وهو من الخشب كتبت الآية الكريمة: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ...﴾ {الأحزاب: ٥٦}.

وفى السوق جامع السلطان، وطوله وعرضه ستون خطوة ويصعد إليه بسلم من ثلاث درجات، وبه خمسون عموداً منقوشاً وسقفه منقوش ومزين ومذهب وله ثلاثة محاريب وثلاثة أبواب ويصعد إليه وينزل منه بثلاثة سلالم، وتحت ستون دكاناً، وفى حرمه دكاكين للحرير والأقمشة وفى هذه المدينة تباع سلع قيّمة، ومحلات بيع الأقمشة

لها أبواب متينة، وتوحد في كل ليلة وعلى يمين هذا الجامع منارة ذات ثلاثة طوابق ولا يستطيع أن يصعد المنارة كل أحد لأنها منحرفة ولوجود هذا الجامع في السوق، والسوق مزدهمة فإذا انهارت - لا قدر الله - هذه المنارة هلك خلق كثير، إن الذي بناها ماهر، وحرم هذا الجامع مرصوف بالرخام وجدار القبلة من الرخام ومكسو بأحجار مختلفة جميلة، ومنبره من خشب مزخرف.

وفي السوق أيضاً جامع الأمير عثمان طوله وعرضه أربعون خطوة وليس له حرم، وله بابان جانبيان.

وفي غرب قصر البك وفي ميدان واسع جامع الشهيد سعيد محمد بك وهو جامع فوقاني وله ثلاثة أبواب ويصعد إلى كل باب منها بسلم يتألف من عشرين درجة إنه جامع جميل، إنه يشبه جامع رستم باشا في استانبول وداخله مكسو بالقيشاني ومنقوش بنقوش مذهبة، وفي جوانبه الأربعة نوافذ من بللور، وله ثلاثة محاريب مزينة ومنبره ودكة مؤذنه من الخشب، وفي داخله أعمدة رقيقة، وفي الجانب الأيمن منه دهليز يفضى إلى دار ضيافة، فيها يستريح البعض كما يشغل البعض بالعبادة وبما أنه جامع علوي فليس له حرم وصحنه مكشوف وفي داخله ثلاثون عموداً منقوشاً مصنوعة من شجر الدلب، فهي ليست حجرية وعلى يمينه المحراب كتب على لوحة من القيشاني:

(إن هذه حجرة الانكشاري محمد أوده باشي والسلطان مراد الرابع وقد صنعه عام ألف وثلاثة وأربعون).

وفي السقف كتب بالخط الجلي آية:

﴿ إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مِنْ آمَنِ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ﴾ [التوبة: ١٨].

وكتبت أيضاً أربعون آية تحيط بأركان الجامع الأربعة وعلى يسرة الجامع منارة جميلة وفي أسفله حوض وبه صنابير مذهبة وفي الجامع ستة مخازن، يضع فيها التجار سلعهم ودهاليز الجامع الستة تفضى إلى الطريق العام، وإن اللسان ليقتصر عن وصف هذا الجامع ولا وجود في مصر ولا في الصعيد مثله، وهناك أيضاً جامع اليوسفية وجامع

الفقراء وجامع الشيخ عبد السلام وجامع القائم مقام وحمد بك وجامع المقدم عبد الرحمن وهذه الجوامع قليلة الزينة إنها لا تعدو أن تكون على الطرز القديم وهذه الجوامع يؤمها كثير من المصلين وفي وسط المدينة، جامع على بك الجرجى طوله وعرضه، خمسة وأربعون خطوة، وفي داخله ثلاثون عموداً من الرخام على يسرة المحراب المزخرف كتب على لوحة من الورق المقوى تاريخاً هو:

(ولأن حاكم جرجا أسد الله أهل الكرم) (١) زلفقار الأمير العالى صاحب الطبل والعلم، وقال كاتبه أن هذا البناء تم فى عام ألف وستمئة).

ومنبه من خشب مزين، وعلى الباب الأيمن للجامع كتب تاريخ بالخط الجلى هو سنة إحدى وستين وألف، وعلى الجامع منارة من ثلاثة طوابق، وفيه خمس منارات أخرى وإلى جانب الجوامع المذكورة مدارس وثلاثة دور لتحفيز القرآن وداران للحديث ثمانية عشر مكتباً للصبيان وسبعة أسبله وتسع تكايا وألف ومائتا ساقية وألفا بئر وحمامان وأحدهما للفلاحين، وهو وبيل الجوى، وضيق، وحمام غير ضيق، وفي السوق حمام على بك الميرميران وهو حمام ينشرح له الصدر لما فيه من مناقف وطاساته المذهبة وكل ما فيه نظيف وأرضه مفروشة بالرخام وفي قبة زجاج وخدامه صباح الوجوه يخفون لخدمة كل أحد فيه ولهم نواظر وكأنها الخناجر، وفي هذه المدينة عدة خانات وضيغان هذه الخانات من التجار والمسافرين، وهى خان على بك وخان يازجى وخان موسى جاووش، وخان مى كتخدا وخان السكرى، وفيها أكثر من عشرين ربعاً وهذه الربوع مساكن للأسر وفي المدينة ثمانمائة وستون دكاناً ولكن ليس فيها من يبيع الأقمشة بالجملة وفيها سلع هندية وعجمية ورومية وكل الدكاكين التى أمام قصر على بك الجرجى مزينة وفي سوق على بك طريق رئيسى على جانبيه مائة دكان مبنية بالحجارة ومسقوفة وفيها سراجون (٢) ولا وجود لسراجين فى غيرها، وللسوق بابان من حديد كأنهما بابا قلعة يغلقهما البوابون فى كل ليلة وليس فيها سوق للبز ولأن هذه السوق

(١) يياض بالأصل.

(٢) صانعو السروج. واحده سَرَج، وهو رَحْلُ الدابة. انظر: المعجم الوجيز، ص ٣٠٨.

واسعة ففى سقفها منافذ للهواء، ويرش فيها الماء فى شدة القىظ وفيها استراحات ويستريح فيها الأعيان وهم يزجون الفراغ بلعب النرد والشطرنج، وعلى بك وهو فاعل خير يسقى دواب الرائحين والغادين من التجار والزوار ولذلك أنشأ أربعين ساقية، وهى تدور كما يدور الفلك. كما تروى هذه السواقى الرياض والبساتين، وهذه السواقى تأتى بالماء من الآبار وإلى جانب هذه الآبار فى جوانب المدينة الأربعة ثلاثة آلاف بئر، وفى جوانب المدينة الأربع حدائق وبساتين، كأنها إرم ذات العماد.

وفى أرض جرجا كنوز ودفائن وخبايا كثيرة، وفيها الخبز الأسمر الأقة منه يباره واحدة، والأردب من القمح بقرش واحد، وأردب الشعير بعشر بارات وثمان الخروف بخمس بارات وفى رمضان بعشرين باره، وغنم جرجا مشهورة وكل خروف يزن من أربعين إلى خمسين أقة، وثمان العجل مائة بارة، وثمان الحصان مائتا باره وثمان الجمل ثلاثمائة بارة، أما المماليك البيض والأوانى النحاسية فغالية الثمن، أما فى تركيا فثمان العبد الحبشى بخمسة عشر قرشاً أو خمسة وعشرون قرشاً، وكبار أعيان هذه المدينة وأرباب الديوان يلبسون فيها السمور والأقمشة الفاخرة والجوخ، أما متوسطى الحال فيلبسون ثياباً قصاراً مبطنه، والفقراء يلبسون بز أسيوط، وأهل هذه المدينة مسنون معمرون، ومنهم من تجاوز مائة وسبعين عاماً وهم فصحاء بلغاء، كما أن شبابها يتميزون برجاحة العقل وفتيانها وفتياتها يتميزون بالجمال لا اعتدال جوها ولهم لهجة خاصة بهم، أما النساء يتميزن بصحة العقل ولهن أسنان كأنها الدر وغدائهن منتشرات وكان جوههن بدر التمام، وكل من شاهدهن تعلق قلبه بهن، كما أنهن رشيقات القوام وإن وجد كذلك عجائز دميمات وساحرات خبيثات يستوجبن القتل وهن يسحرن الغرياء ويؤذنينهن بسحرهن، وذلك أن السحر كان شائعاً فى هذه الديار منذ عهد الفراعين.

منتجات ومصنوعات هذا الإقليم

يوجد بها الخبز الأبيض كالورد الأبيض وفتائر والكعك واللبن والقشدة، وفريك القمح والسمن والعسل والتمر والليمون والسفرجل والعنب والرمان والخوخ، والتين

الأبيض فيها ليس له مثل في بلد آخر ولكن إذا ما حملوا التين الطازج في سلة إلى خارج المدينة فقد لذة طعمه، وهو سريع الهضم وهو مقو، وتنتج ثلاث مرات في العام، وفيها الغنم والحملان كما أن دجاجها سمين كما تشتهر بخيولها وجمالها وسمكها، ومن مصنوعات الوسائد المصنوعة من الجلد كما يصنع فيها الأبنوس وسن الفيل والشطرنج ووبر الجمال وصوف الغنم وسجاجيد الصلاة والسفن، وفي جوانبها الأربعة مصاطب السوق تستحق المشاهدة وأمام قصر البك يحتشد جمع غفير من الرعاع والعرب وفي الديوان عديد من القاعات والحجرات وفي حديقة الديوان حوض وناפורات وسبل، كما أن ثمة طيور تصدح بأنغام عذاب.

بيان من دفن في تراب هذه البلدة من الأولياء

أولا بالقرب من جامع على بك وفي نهاية دهليز بابه الأيمن قبر صغير للشيخ المكي وهو من أهل الطريقة البكرية، وحينما كان يحفر أساس هذا الجامع عثر على حجر مربع كتب عليه بالخط الكوفي:

(هذا قبر الشيخ محمد المكي سنة ١٠٤١، إن هذا العبد العاصي غادر تراب المذلة هذا وانتقل إلى أرض أخرى إنه مقامنا هو بيت الله ونحن نسكن بيت الله إلى أن تغنى هذه الدنيا).

وقد ظهر قبر هذا القطب أثناء بناء جامع على بك فنقل جثمانه من موضعه ودفن إلى جانب أساس الجامع ومنذ وفاته إلى بناء هذا الجامع ثمانمائة وتسعون عاماً وما زال جثمانه غصاً وقد شهد على ذلك ألف وستون من الناس والكُلُّ يعرف كرامات هذا الولي ويقرأ عنها في الكتب وهؤلاء المشاهدون كانوا يلتمسون منه البركات، كما دفن هناك الشيخ المجدوب دهيش بن محمد، وخارج البلدة الشيخ عثمان الصنافيري وبالقرب منه ابن تميم الداري، والشيخ عبيد وقطب العالم الروحاني وحكمت المعدن الرباني الشيخ عبد السلام المقرئ، والعالم النصيح ذو اللسان الفصيح الشيخ صبيح، والشيخ عباس، والشيخ بياض، وكذلك الشيخ عمر الحلواني، وفي جامع الفقراء الشيخ

منصور العالم، وبجواره الشيخ حسن السعدى ومحمد أغا وفى الزاوية مقام الأربعين والشيخ عبد السلام وبجواره الشيخ عمر الحوراني وبجواره زاوية مقام الأربعين رحمة الله عليهم أجمعين.

ولله أحمد أنى قرأت الفاتحة لهم جميعاً وطلبت البركة من أرواحهم الشريفة وقد قضيت عشرة أيام هناك فى بهجة وسرور وقد حملت فرمان إبراهيم باشا إلى حاكم جرجا وفيه ذكر لغرق سفينة الغلال وحملته إلى الديوان وبناء على شهادة الأهالى أخبرتهم بأن سفينة الغلال غرقت وأثناء أخذنا من ربان السفينة خمسمائة قرش، وقدمنا للباشا خمسة أكياس ونلنا من حاكم جرجا أوزبك بك كيساً وقماشاً من المخمل وجواداً وهجينين، وفرو سمور كما نال كل خادم منا مائتى قرش ومعنا عشرين من حَمَلَة البنادق فودعنا أعيان البلاد جميعاً وأرسلنا إلى الباشا جواداً وعشرة قروش.

بيان القرى والقصبات من جرجا إلى إسنا وأسوان والشلالات

وقد لقينا مشقة شديدة من شدة القيظ فى رحلتنا من جرجا إلى إسنا وأسوان والشلالات وأبريم وصاى وبربرستان وفونجستان، وقد مررنا فى طريقنا على منازل وقرى وقصبات أولاً فى شهر صفر من عام ألف واثنين وثمانين فى اليوم الأول من شهر صفر وفى معيتنا فرسان وعبيد اشتريناهم ومضيينا لطياتنا وركبنا سفينة فى النيل ودخلنا ولاية شرقستان وفيها يسمون جرجا غربستان، وإقليم شرقستان فى حكم أبى يحيى، وله عشرة آلاف فارس يحملون الحراب وبلغنا مدينة:

أبو خالد

ونزلنا فيها ضيوفاً ليلة، وهى بلدة صغيرة بها مائة بيت، ومضيينا فيها إلى شيخها أبى يحيى وشرفنا بصحبته، وهو من أبناء الشيخ خالد، وإذا لم تضع امرأة حملها وغطت رأسها بسرراويل الشيخ وضعت، ويقول بعضهم إن هذه السرراويل المذكورة ليس للشيخ إنها خاصة بخالد بن الوليد، وقد آلت إلى الشيخ بالوراثه - والعهدة على الراوى - لأن هذه السرراويل وما لها من خاصية معروفة مجربة أحضرت هذه السرراويل من التكية فوجدتها سرراويل حمراء ملفوفة، ويقال لقوم الشيخ يحيى بنى خالد إنهم قوم فى نعمة

ورغد كما أنهم مطيعون متقادون، وخبولهم عجيبة، وفي الجهة الشمالية من إقليمهم مساحة واسعة من الأرض، وفي الجهة القبلية السويس، وعلى شاطئ بحرهما قلعة ميناء القصير وفي الجنوب مدينة مشا والشمال قضاء أخميم، وهى حدود صغيرة إلا أن قراها عامرة كثيرة المحاصيل فيقع هذا الإقليم بين بحر القلزم والنيل وهو إقليم واسع ومن الصباح اتجهنا إلى الشيخ يحيى بكيس كان قد أرسل معنا أمانة من آغا غلال جرجا إلى الشيخ يحيى، ومضينا مسيرة خمس ساعات على شاطئ النيل فبلغنا:

بلدة حمادى

وهى على ضفة النيل وتحوى مائتى بيت وجامعاً، ويسكنها أولاد الشيخ حمادى وهو من ذوى قريا الشيخ يحيى، وهم يسكنون هنالك كذلك وفيها ألف فارس وأبو يحيى من الهوارة واجتزناها وبلغنا:

بلدة مزادى

وبها ستون بيتاً وليس بها جامع ومضينا على ضفة النيل سبع ساعات وبلغنا قصبة بلايش.

أوصاف قصبة بلايش

إنها فى حكم جرجا وكاشفية قوص ويتبعها مائة وسبعون قرية تدر أربعين كيساً من المال وألف أردب من الغلال، وكلها عسكر وهى قضاء فوه، ويأتىها مرة فى الأسبوع نائب يحكمها، وبها جامع ودار ضيافة وستون بيتاً ولا آثار لعمران سوى ذلك وهى كثيرة المحاصيل، وهم يزرعون نباتاً يشبه شجرة ذات سوق ويعلو حتى يبلغ قامة الإنسان وله نورٌ أصفر مثل الترجس، وله رائحة طيبة، ويجمع فى الربيع ويصدر إلى فرنسا ليصنع منه الصبغة، ويشتري التجار القنطار منه بمبلغ ستين قرشاً، ثم يكتمل نوره ويمتلئ بالبذور وتجمع هذه البذور ويباع الأردب من هذه البذور بثلاث قروش ويستخرجون منها فى مصر وغير مصر الزيت، وزيت السمسم زيت لذيد المذاق وله رائحة طيبة مثل الكافور والمسك والعنبر وإذا وضع فى القناديل انبثقت منه شعلة مضيئة.

وتجاوزنا هذه القرية، وفي الجنوب على ضفة النيل رأينا جبلاً على ساحله قرى عامرة وفي هذه القرى رأينا نوعاً من الدوم، وفي الطريق إلى الشمال رأينا بلدة تسمى بلد الدوم، وفيها أخشاب ترتفع في السماء معوجة وغير معوجة لكنها أشجار دوم، ولكن هذا النوع من الدوم كل عذق منه يزن قنطاراً أو قنطارين، وكل دومة فيها تزن أربعين أو خمسين درهماً، وهو دوم أحمر اللون وحجمها في حجم القبضة وهم يستأصلون من الدوم شوكتها ويضعونها في حق فيه الفلفل الهندي والتبغ فيصبح هذا الدوم لذيذ المذاق والفلاحون غالباً ما يأكلونه.

أوصاف قصبة فوه العليا

هي قصبة معمورة بعيدة عن النيل فيها ثلاثمائة بيت وهي تحت حكم جرجا، وهي مع توابع قوص، وبها مائتان من الجند المعروفين، بـ (سكسان) ويتبعها تسعون قرية تدر أربعين كيساً ويتحصل منها على ثمانمائة أردب من الغلال، وليس فيها جند من الفرق الأربعة ولا قائد وبها دار ضيافة عظيمة، وبها جامعان كبيران وسبع زوايا ومقهيان، وليس فيها حمام ولا خان ولا سبيل ولا سوق، ولكن فيها مكتبتين للصبيان، والكاشفون يقيمون بها في خيام وحتى الخيام التي يقيم فيها الكاشفون تقام في الرمال، وفيها أعمدة قديمة منقوشة، وعلى حد قول المقریزی كانت هذه آثار قصور يسكنها الفراعين في الزمان الخالي، أما في يومنا الحاضر فليست سوى صحراء لا أثر فيها للعمران ولا وجود لروضة ولا بستان، وكثير من أهلها مفاليس، ووجوههم شاحبة أميل إلى الصفرة، وجوها ثقيل وفيها ضريح الشيخ إبراهيم نوري، وله قبر صغير إلى جانب جامع كبير، وله مناقب مذكورة في كتاب الطبقات للشعراوي وتجولنا بعد ذلك بين قرى وفيرة المحاصيل بالقرب من النيل حتى اقتربنا من السويس وبينهما مسيرة ثمان ساعات ونصف، وكما عبرنا أكواخاً من القصب يسكنها العرب وبعد سبع ساعات بلغنا قنا.

أوصاف مدينة قنا

مدينة قنا فتحها عمرو بن العاص وبعد عمرو وفي خلافة عثمان وحين كان محمد ابن أبي بكر والياً على مصر قدم قنا، وجعلها عاصمة ثلاثة أعوام، وقد أصبحت هذه المدينة بعماثرها مصر الثانية، وأقيمت بها قلعة بالقرب من ميناء القصير في تلك الفترة

ومنها كانت ترسل الغلال إلى جدة، وهي ميناء مكة، وينبع وهي ميناء المدينة المنورة، ومنذ هذا العصر وأهل قنا يشتغلون بالتجارة، وفيها تجار عظام وأكثرهم من أشرف مكة والمدينة، ولأن قنا ميناء صغير فهي كاشفية تتبع قوص وهي التزام بدر مائة كيس، ليس فيها جنود من الفرق الأربع ولكن فيها انكشارية وعزب من مصر.

ولهذه المدينة مفتى على المذاهب الأربعة ونقيب للأشراف لأنها مليئة بأشراف مكة وهي قضاء بدر مائة وخمسين أقسجه ليس إلا ولتجارها مخازن على شاطئ النيل وتتكدس في هذه المخازن شتى أنواع السلع لأنها ميناء مكة والمدينة والحبشة واليمن وعدن، ويأتى الأشراف من الحجاج ويقضون فيها أربعة أو خمسة أيام، وهم فيها يسرون على الأقدام أو يركبون الحُمُرَ أو الجمال، ومنها يصلون إلى ميناء القصير، وكراء^(١) الحمار خمسة قروش، ويركبون منها السفن ليصلوا في ليلة أو ليلتين إلى ميناء ينبع، وبعد ذلك ييلفون مكة في خمسة أو عشرة أيام بإذن الله، ويكلفهم الحج ديناراً واحداً وهناك يلتقى جموع غفيرة من الناس، ولكن الطريق وعمر عسر.

وفي جنوب قنا على ساحل النيل على مسيرة خمسمائة خطوة أرض رملية بها قصور شامخة ومسافة تبعد جنوباً عن النيل قدرها ثلاثة آلاف وستمائة خطوة وهي مدينة جميلة وجوانبها الأربعة لها أبواب، وعليها حراس، ويغلقونها ليل نهار وفيها عشرون جامعاً، وسبع منها خطبة علاوة على كثير من الزوايا وفيها الجامع الكبير يُؤمُّه كثير من المصلين ويسمونه كذلك جامع أمير المؤمنين لأن عمرو بن العاص حينما فتح هذه المدينة أقام هذا الجامع للخليفة عمر بن الخطاب، وطوله وعرضه ستون خطوة، وفي داخل الجامع خمسون عموداً من الرخام يحمل سقفاً وفي وسط حرمه خمس نخلات نبتت من جذر واحد، لقد زرع عمرو هذه النخلات بيده ومحاربه ليس خالياً من النقوش ومنبره من خشب وعلى منبره تاريخ هو:

(بسم الله الرحمن الرحيم، أنشأ هذا المعمرات المباركة والجامع الأمير حسن أغا في تاريخ السابع عشر محرم سنة ١٠٧٩).

(١) كراء: أجرة.

وقد تخرب هذا الجامع على مر الأيام وقد أنفق حسن أغا وهو ملتزم مدينة قنا من صلب ماله عشرة آلاف قرش لتعميره وترميمه ولا وجود لجامع كبير في تلك المدينة سوى هذا الجامع، وبالمدينة سبع تكايا ومدرستان وعشرة مكاتب للصبيان وعديد من الوكالات وسبع مقاه ومائة وخمسون دكانًا وحمام وسوق للغلال وميدان، ويقام في كل أسبوع في هذه المدينة سوق يأتي إليها جمع غفير من الناس من سبعين قرية بجوارها فيبيعون ويشترون.

ولاعتدال جوها نساؤها سمرات جميلة ولقربها من الحبشة فإنهن من نسل الجوارى الحبشيات، وإنهن يتحلين بالأساور والخلاخيل كما يلبسن القمصان الحريرية، ولهن عيون كعيون الطباء، وهن يلففن قوامهن بالحرير الأسود، وبعضهن خليعات يرقصن في المقاهى وليس هذا عيبًا عندهن، أما السيدات العفيفات منهن فيختلفن عنهن وهن لا يغادرن من منازلهن إلا إلى المقابر في يوم الجمعة، والرجال يلبسون العباة وتشتهر المدينة بكرومها وعنبها المسكى وعناقيده تتدلى من السقوف وعنب قنا ينضج قبل عنب مصر والفيوم بخمسين يومًا، وذلك أنه في أرض رملية وجوها شديد الحرارة، أما الخوخ فتزن الواحدة منه مائة درهم، وفيها المشمش طيب وحمامها مشهور ويأتي التجار من مكة ويأخذون الحمام من التجار ويضعونه في أقفاص ليأخذوه، ويطيرونه وهو مقيد الجناحين فيطير ويبلغ في مدة تتراوح بين ساعة إلى خمس ساعات ثم يعود مرة ثانية إلى قنا ويضرب به التجار للناس المثل في مَنْ يمضى إلى حيث يريد في طرفة عين، ويقولون أنت حمام قنا، وفي قنا يطيب عبد اللاوي، وهو نوع من الشامم وأكل لبه وبذره مدر للبول كما يطيب البطيخ والشمام والخيار والعجور في هذا البلد.

بيان ما فى هذه المدينة من قبور الأولياء

فى الجهة القبلىة من المدينة وفى الحدائق قبر الشيخ عبد الرحيم القناوى وهو الملقب بين الأولياء والصلحاء بشفيح الملة وقد ذكرت مناقبه على التفصيل فى كتب تراجم الأولياء وطبقات الشعراوى وله باب يفضى إلى الجهة الغربية وعلى صندوقه الشريف زجاج رقيق وعليه سقف منقوش كما أن صندوقه مستور بستر أحمر وعلى عمود رخامى أمامه تاريخ مكتوب هو: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ...﴾ إلى آخر هذه الآية الكريمة رقم ٢١ من سورة التوبة، وبعدها (انتقل العبد الفقير إلى عفو ربه القدير الشيخ الإمام الحسينى، النسيب علم الأعلام، وبركة الإسلام وغيث الأنام، قطب الدين عبد الرحيم الحسينى، وتوفى يوم الجمعة بعد صلاة الصبح فى يوم ()^(١) من شهر صفر سنة اثنتين وتسعين وخمسمائة هجرية قدسنا الله بسرّه العزيز.

وعند قدمه المباركة الشيخ أبو الحسن وبجانبه الشيخ سيد محمد اسكندرانى ويجواره الشيخ عبد الله القرشى وفى ركنى الشيخ عبد الرحيم من خلفاء الغار الشيخ إبراهيم أبو الدنيا أما سبب تسميته بأبى الدنيا أن ابناً له عندما انتقل إلى رحمة الله، ولم يكن معهم درهم واحد لتجهيزه وتكفينه فانشقت الأرض عن كثر عظيم، وحمل الأهالى ما فى الكنز من مال طوال ثلاثة أيام، فاستغنوا بهذا المال ولذلك لقبوه بأبى الدنيا وقد عمرت قنا بهذا المال المستخرج من ذلك الكثر وبجانب هذا الشيخ العظيم ابنه الشيخ على الصابرى ابن الشيخ إبراهيم أبو الدنيا، وأبوه كذلك قطب عظيم، ولم يضع يده على هذا المال، إنه كان رجلاً نزيهاً، إنه من ذوى قرابة الشيخ الزبيرى وقد توفى أيام الفتح زمن الصحابة الكرام، والشيخ عبد النبى والشيخ سيد محمد والشيخ محمد الحسينى والشيخ سيد يونس، وفى المدينة الشيخ عمر النسيم إنه قطب عارف بالله وله مناقب لا تدخل تحت حصر وخلف جامع عمر فى الركن الأيسر يرقد فى قبر متصل بجوار الجامع الشيخ محمد الأساسى وقد اعتزل أربعين عاماً فى ركن وكان يغادر هذا

(١) بياض فى الأصل.

الركن للتبول والتغوط ليس إلا، وكان ينام ساعة واحدة، ولم يشاهد ماشياً، وقضى عمره أصم أبكم، وقد شغلته الطاعة والعبادة عن كل شيء فى الدنيا وقد حكى البكوات الذين اختلطت بهم قالوا، إنهم كانوا يزورونه كسيفى البال ولكن المسرة كانت تدخل قلوبهم بزيارته وقد دفن فى هذه المدينة آلاف من الصحابة رحمة الله عليهم أجمعين، وفى هذه المدينة يسمون العرب العباددة، وهم يشكلون قبيلة تسكن تلك المدينة، إنهم قوم يعيشون فى نعيم وهم شجعان وعددهم ستة آلاف، وهم على الدوام يحملون الغلال إلى ميناء القصير وهم يمضون فى أرض رملية حيث يقطعون مسافة فى الصحراء والجبال وتحت حرارة الشمس وفى القرى يتناولون الإفطار، وتجاوزناها بعشر ساعات فبلغنا القصير.

أوصاف قلعة ميناء القصير

إنها على البحر الأحمر وهى بناء صغير وحصين، ومحيطها خمسمائة خطوة، وأول من بناها محمد بن أبى بكر، وبعده الظاهر بيبرس والسلطان قايتباى وقد عمرها، وهى قائمة على صخرة وليس لها خندق وبابها يتجه نحو الغرب ولها رئيس ومائتان من الجند وعتاد سبعة عشر مدفعاً صغيراً وجامع وعشرون غرفة ومخزن للقمح وغرف للضيافة، ولا وجود فيها لحمام وليس فيها خان ولا سوق، ولا أثر فيها لحديقة، إنها أرض جزيرة ولها مرفأً عظيم ومرفأها يأمن الرياح جميعاً، وفى الجهة المقابلة ميناء ينبع، والوصول منها إلى المدينة فى يومين وميناء مكة توجد على مسيرة ثلاثمائة وستين ميل ومن جدة إلى مكة ثمانية أو تسع ساعات، وتأتى السفن من الحجاز على الدوام إلى القصير، وهذه السفن تبحث عن الغلال والعبادة يبيعون الماء بالقطرة الواحدة وعندما قدمت هذه القلعة شكى لى أهلها من شدة الظمأ، وبالقرب من القلعة دليل على وجود الماء، ثم ركبنا جيادنا وقد بلغنا مكاناً يسمى جيرك وحقيقة الأمر أنه مكان فيه ماء وعرضت شكوتهم على إبراهيم باشا وزير مصر وأوصلت أعيان القلعة إلى إبراهيم باشا فرصد عشرة أكياس، ومع أغا موثوق به فأمر هذا الأغا المعتمد عليه بحفر بئر، وأقام عنده مصطبة وقصرأً فنبع منها ماء عذب، والله الحمد أن هذا تم بمسعى من هذا الرجل،

وبذلك تخلص من الظمأ الغادون والرائحون والحجاج والمقيمون فى تلك القلعة والدال على الخير كفاعله، وقد جاء فى أحد التواريخ ذكر قلعة القصير والبئر والقصر الذى فى جانبها وتاريخ بناء هذا القصر هو عام ١٠٨٣.

ومضينا تسع ساعات فى طريق دلنا عليه العبادة وصلينا الصبح على شاطئ النيل وتناولنا طعام الإفطار فى بلدة تسمى:

انبوطه

واسترحنا ثلاث ساعات، وهى بلدة على بعد ثمانى ساعات من قنا بها خمسون بيتاً، واجتزنا على شاطئ النيل قرى بيوتها مبنية بالقصب وفى خيام العبادة شربنا لبن النوق، وبعد ثلاث ساعات بلغنا مدينة قوص.

اوصاف مدينة قوص القديمة

أقامها شداد بن عديم بن يود فى عهد شيرين قفطريم، ومن أبناء قفط من يسمى قوص وهو الذى بنى المدينة لما آل إليه الملك، وفى عام ١٤١٤ استبحر العمران فى مدينة قوص، وفى هذا الزمان كان بالقرب من قوص مدينة خربة ومنها فر أهلها من خشية مرض الطاعون إلا أنهم لم ينجو من الطاعون وهلكوا مع أهل قوص، ومنذ هذا العصر لم تعمر قوص، ويقول بعض المؤرخين إن شداد بناها وكانت حديقة إرم، وقد اختلف العلماء داخل مصر وخارجها فى بناء هذه المدينة. وعلى حد قول كعب الأحبار لم يجتمع العلماء على رأى فى مَنْ هو باني قوص إنها مدينة طيبة الهواء يعجز الوصف عن عظمتها إن جوها هو جو حَلَب أو جو مَعَرَّة النعمان، وقبل فتح مصر استولى عليها الأسود بن مقداد من القبط، وبعد الفتح بحثوا فى أرضها عن كنوز ووجدوا عموداً منهدماً، ولوجود العقارب بها فرَّ العسكر وظلت المدينة خربة إلى أيام عبد الملك بن مروان من خلفاء بنى أمية، وسبب خراب هذه المدينة طوال تلك الفترة هو كثرة العقارب ولكن العقارب لا تصيب أهل هذه المدينة بضرر ولقد شاهدت أنا هذا العمود المنهدم، وقد رسم عليه صورة عقرب وقد كتب أسفل العمود سطور، ويراها كل من يمضون فى

الطريق لأنه على الطريق العام، وهذه المدينة في حكم جرجا ولها كاشف له مائتا جندي، كما تحوى ستين قرية ويتحصل منها أربعون كيساً وألف أردب من الغلال ولكن ليس بها مستحفظون ومفتى ولا نقيب أشرف وإنها قضاء به ستون قرية ويتحصل منها في كل عام ثلاثة أكياس وهى مدينة تبعد عن النيل بمسافة بعيدة وبها ثمانمائة بيت واسع ولكن ليس فيها كثير من القصور ولا البيوت الجميلة، وبها ستة محاريب وأربع خطب وبالقرب من السوق جامع بناه المستكفى بالله حين نفى فى هذه المدينة إنه جامع بالغ الغاية فى الكبر وطوله وعرضه مائة خطوة، وبه سقف قديم يقوم على مائتى عمود، كما أن بها جامعين آخرين لا علم لى بهما إضافة إلى الزوايا، وبها وكالتان وخمس مقاه وستة مكاتب للصبيان وثلاثون سوقاً صغيرة وعشرون سبيلاً ولكن ليس فيها حمام ولا مدرسة وأغلب ما فى حدائقها نخيل الدوم، ونتيجة لذلك فإنها ليست مدينة عامرة كما أن جوها ليس مقبولاً ولذلك فأهلها صفر الوجوه.

بيان ضرائح هذه المدينة

لما آلت الخلافة فى مصر للمستكفى بالله سليمان بن الحاكم بأمر الله العباسى بنى بها جامعاً كبيراً كما أن أتباعه من العباسيين سكنوا قلعة الكبش، وكان الحل والعقد فى يد الظاهر بيبرس، ولكن اسم المستكفى كان يضرب على العملة ويذكر اسمه فى الخطبة وقد وقع الصراع والنزاع بين ذوى قرياه كما وقع النفاق بينه وبين الظاهر بيبرس، فنفى الظاهر بيبرس أهل المستكفى وأقاربه إلى تلك القلعة، وأمر المستكفى جميع المغاربة والهنود الخبراء بالكشف عن كنوز، فاستخرجوا مطلسمات مختلفة من عهد شداد بن عاد ولكن المستكفى توفى فى عام ٧٠٣، فدفن فى قبر صغير، ودامت خلافته تسعاً وثلاثين سنة، وعمره خمسون سنة وهذا مسطوراً على قبره، وأخو الحاكم بأمر الله هو إبراهيم الواثق بالله وبجانبه محمد عطاء الله بن إبراهيم الواثق بالله، قد نفاهما الملك الصالح إلى قوص وهما مدفونان بجانب قبر المستكفى بالله، ولحكمة الله أنهما نفيا إلى قوص معاً، فقد نفاهما الملك الصالح بن الملك الناصر إلى قوص وهؤلاء هم آل عباس

المدفونون في هذه المدينة، وهذا ما قيل في شأنهم وفي المقبرة التي بجانب ضرائحهم الشيخ ظاهر والشيخ كاظمى والشيخ نور الدين الشيرازى والشيخ علام الدين البصراوى وهؤلاء الأعيان كانوا من حاشية المستكفى الذين هاجروا معه من بغداد إلى مصر وبلغ مدينة قوص، رحمة الله عليه، وقد عبرنا على شاطئ النيل أراضى رملية وأراضى صخرية وأراضى خربة لمسيرة ست ساعات، وبلغنا ولاية أشمون.

أوصاف ولاية أشمون (الأقصر)

إن بيطر بن حام بنى مدينة قديمة تسمى أقصرين بعد الطوفان وهو الأخ الأكبر لسام ويقال إن بيطر هذا أبو القبط، ومن نسله ولد توأمان أحدهما أشمون ريف، وآخر أشمون جاو وقد ولدا في مكان واحد وأرسلهما بيطر أبوهما إلى إقليم مصر، ولذلك سمى الإقليم أشمون وقد عمرت هذه المدينة، وقد بنى الأخوان قصرين على شاطئ النيل، وبعد بناء هذين القصرين سميت المدينة القصرين، أى المدينة التي تحوى قصرين والكلام على هذه المدينة أولى به أن يكون جيزاً، وهى تتبع كاشفة جرجا، وبها مائتا جندى ويتحصل منها أربعون كيساً، ولا يوجد بها مستحفظان ولا شورباجى ولا مفتى ولا نقيب أشراف ولا أعيان وقد كانت مدينة عظيمة على شاطئ النيل تحوى ألف ومائتى بيت، وبها كثير من الأبنية العالية وكثير من القبور، ولذلك تبقى منها أعمدة مطمورة فى الرمال، وهذه الأعمدة بقايا لعماثر أقامها سلاطين مصر القدامى، وفى جامع السليمانية أعمدة من هذه المدينة نقلها ربان الإسكندرية إلى جامع السليمانية فى استانبول وقد أنعم عليه بخلعة وألف دينار، وقد نقلت هذه الأعمدة فى سفن فى البحر إلى استانبول، وقد علمت أن أعمدة جىء بها إلى ميدان الوفاء وهذا ما سمعناه من والدنا رحمة الله عليه، ولكن هذه المدينة ليست معمورة وبها عشرون محراباً وثلاث خطب، وبها أسواق صغيرة وجامع فى وسط السوق فيه جمع غفير من الناس كما أن بها خاناً وحماماً والعديد من الزوايا المعمورة ومكتباً للصبيان وسبيلاً ومقاهى، وجوها غاية فى اللطف وأما أهلها ففى غاية الفقر.

زيارة ضريح الشيخ أبي الحجاج

إنه مدفون في مغارة بالقرب من جامع، وله كرامات كثيرة، وإنه قطب عظيم وليست لمناقبه نهاية، وهو الأخ الأصغر للشيخ عبد الرحيم القناوى الذى دُفن في مدينة قنا وله ملك خير الدنيا والآخرة، وقد قرأت الفاتحة في الضريح وقد وهبت ثوبها إلى روح الشيخ أبي الحجاج، إنه قطب ذو مكانة وشهرة واسعة في تلك المدينة، وهو قريب الشيخ رمضان الفرغلى، وهو كذلك قطب عظيم واسع الشهرة، وغادرت هذه المدينة، ومضيت جنوباً على شاطئ النيل في أرض خالية وعلى مسيرة سبع ساعات شاهدت على ضفة النيل تماسيح وبلغت:

بلدة طوت

وهى بلدة معمورة تقع على أكمة في ناحية من الأقصر وتضم مائة بيت، تجاوزناها ومضينا وعلى يسرتنا النيل وقطعنا طريقاً مدة ست ساعات وهو طريق في وسط الصخور فبلغنا بلدة:

شحات

تتبع إقليم أقصرين وهى على شاطئ النيل، وبها مائة بيت وجامع، وهى بلدة عامرة، ومضينا على شاطئ النيل مدة ست ساعات، وبلغنا بلدة:

دير أم على

وبها كنيسة عظيمة ولذلك يسمونها الدير، ورهبان هذه الكنيسة جميعاً من القبط ويقولون إن هذا الدير بنى قبل ثلاثة آلاف سنة.

واتجهنا هذه المرة إلى الجانب الشرقى من النيل، فبلغنا مرجاً مخضوضراً وفيه قبر صغير للشيخ عبد الدايم وهو من أبناء الصحابة الكرام - رضوان الله عليهم - وقرأت الفاتحة لروحه ومضينا ست ساعات على شاطئ النيل، ونزلنا ضيوفاً على خيمة شيخ العرب لقبائل الحجيزة، واسمه الشيخ ناصر الدولة وفى هذه الليلة تناولنا لحم الجمال وشربنا لبن الناقة وأكلنا حلوى التمر كما أعلفت خيولنا ورجال هذه القبيلة من الفرسان

البواسل، وقمنا فى الفجر وعبرنا أراضى حجرية وبعد ست ساعات كان الوقت الغروب
فبلغنا:

ديار عشاير رده

وهم كذلك شجعان وهم عيارون وشجعان يمضون إلى بلاد الحبشة ومكثنا فى خيمة
شيخهم أبو عصيب، وتناولنا لحم الجمل وشربنا لبن الناقة، وحمدنا الله، وأعلفت
خيولنا الذرة، وقوم رده هؤلاء لا يدينون بالطاعة إلى والى الحبشة ولا كاشف إبريم فهم
جبابرة فى الأرض، ومضينا على شاطئ النيل واجتزنا مدناً خربة وقطعنا المروج فى
ثمانى ساعات فبلغنا قوم:

عريان الشبيكة

وهم ستة آلاف مقاتل من العرب وهم شجعان، وشيخهم يسمى شجاع الدين،
وعندهم كثير من الذرة ولحم الغنم وخبز الذرة ولا وجود للقمح عندهم، ولأنهم قوم
عصاة متمردون لا يدفعون مال الغلال الذى على ما يزرعون، فقمنا من عندهم ومضينا
عنهم وولينا وجهنا قبل الجنوب ومضينا على شاطئ النيل، وهو يأتى فى هذه الجهة من
بلاد الحبشة، وفى هذه البقاع عرب عصاة وفقراء ليس لهم إيمان كأنهم الحيوان، وليسوا
يتبعون ملك الحبشة ولا إبريم ولا بلاد الفونج إنهم رعاع عراة وقدمنا إليهم بعض الهدايا
فغادرتهم سالمين، وبعد أربع ساعات وصلنا إلى جبل السلسلة.

أوصاف قلعة السلسلة

إنها جبال شامخة توقع من ينظر إليها فى الخشية، وفى هذه الجبال مئات من
المغارات ولا يعلم عددها إلا الله، حفرها قوم عاد وثمود وكانوا يسكنونها، وسخرت
لهم صخور الصوان وكأنما طحنتها وبنوا بها قاعاتهم وحجراتهم وكل حجرة ترتفع
أربعين أو خمسين ذراعاً، وفيها عجائب وغرائب كأنها حية، وفيها تماثيل وتصاوير
غريبة وفى كنفها تحار العقول، وفيها صور تنظر إلى مشاهدتها وهى باسمه كأنها تبسم،
وخلصة القول أن جبل السلسلة هذا عجيبة من عجائب الزمان، وعلى سطح هذه
الصخور حصنٌ حصينٌ، كما توجد قلعة قبالة النيل هى قلعة أنفود.

قلعة أتفود

وأمامها يجرى النيل، وفي زمان كانوا يجرون هاتين القلعتين إلى النيل بسلسلة ولذلك يسمون هاتين القلعتين قلعة السلسلة وبعدهما شلال بوغازى وشلال الولاية، إنهم سبعة مضايق والنيل بعدهما يمتلئ بالجزر العامرة وليس في هاتين القلعتين رئيس لهما ولا قواد ولا جنود، ولكن يسكنها فوج من قبائل الجعفرية، وقبالة هذه القلعة في جزيرة قبر الشيخ كوم صياح.

زيارة قبر الشيخ كوم صياح

حينما يفيض النيل ويغمر هذه الجزيرة يصيح، وهو يصيح موحدًا بالله ولذلك يسمونها جزيرة الصياح.

وبلدة كليج

معمورة ويتبعها مائة قرية وجميع أهلها ملاحون ويسمونهم قبيلة بصلى وبها ثلاثة آلاف إنسان وقد أتوا من قوم الهوارة، واستوطنوها، وبعد ذلك مضينا خمس ساعات جنوبًا على ضفة النيل إلى قلوبو

أوصاف قلعة قلوبو

إنها من بناء شداد بن عاد، وهي قلعة كانت للملك بعد ملوك ثم استولى عليها سيف بن ذى اليزن من القبط ثم اجتزنا صخور شلال بوغازى ويجرى النيل إلى صحراء نصف المغرب وفي مقابل جزيرة كريد يخلط ماؤه بماء البحر الأبيض وطريق جريانه خندق عظيم وفي عهد عثمان بن عفان استولى أبو عبيدة بن الجراح على هذه القلعة من القبط، ولكن بعد أن استشهد عثمان استردها القبط، وكل القلاع التي على النيل تحت حكم إيريم وفي قضاء أسوان، وفي داخل القلعة ثلاثمائة بيت من حصير يسكنها بنو جعفر، إنهم مسلمون ولكنهم على المذهب الجعفرى، وإنهم يسكنون فى القلعة وفى الصحراء خارجها، إنهم ستون ألف إنسان وهم قوم يعيشون فى رغد من العيش، وفى الجانب الشمالى للقلعة ضاحية عظيمة، ومضينا على النيل ثلاث ساعات، ومررنا بأراضى صلبة كالحديد، وفيها كل صخرة فى حجم الفيل وقد أصبحت سدًا فى النيل،

ويسمى العرب هذا السد بخيط العجوز، وفي الجهة الشرقية للقلعة مغارات بها ألف تمساح مكفن وقد تراكمت هذه التماسيح بعضها على البعض وأكفانها من قشور الدوم، ومن العجب أن البلى لم يصبها، ولكن لا تنبعث رائحة خبيثة من رملها كسائر الحيوانات، وهذا أمر عجب، وهذه التماسيح يسمونها جبل التمساح، وقد فتح ذو اليزن في الصخر طريقاً، والسفن تمر في هذا المضيق، وهذه السفن سفن صغار وتمضى إلى أسوان، ثم تحمل الجمال أحمال السفن، وفي هذا المكان سبع مضايق وشلالات من بعيد تتدفق مياهها وتمر في جبال شوامخ وبين صخور، وثمة بوغاز والنيل ترتمي مياهه في هوة في طول المأذنة.

ومن عجب أن بعض السفن تطير فوق هذه الصخور ثم تجرى ويجرى النيل في هذه المنطقة وبين ضفتين عليهما جبال كأنها الجودي ويتشعب النيل في هذه المنطقة وبين كل شعبة وشعبة جزيرة والجزر المعمورة تقع في الجانب المقابل، وسوف نتحدث عن هذا في موضعه بمشيئة الله.

ومن يمضون من قلوبو إلى الحبشة يبدأون السير من هذا الموضع وبعض وزراء الحبشة يقدمون إلى هذه القلعة، ومنها يجمعون الجند ويحملون المؤن على الجمال ويقطعون الصحراء إلى الحبشة، وليس لهم طريق سوى هذا الطريق، وهذا الطريق طريق حجري والطريق إلى إبريم على ضفة النيل ويمضى جنوباً وطريق إلى الحبشة في الجهة الجنوبية، وقد مضيت مع جماعة من قلعة قلوبو في الطريق إلى إبريم وسرنا ثلاث ساعات حتى وصلنا:

مدينة صين باس

كانت مدينة عظيمة في قديم الزمان ومضينا بين خرائبها يوماً بتمامه وفيها غرائب وعجائب وأعمدة ومطلسمات، وفيها ما في (آت ميداني) في استانبول من أحجار مربعة وعليها علامات غريبة، إنها كانت قديماً مدينة قوم عاد، وقد خرج من الحبشة أبرهة في سبعين ألف فيل ومضى إلى هذه المدينة فخربها وأهلك أهلها، وهي الآن مدينة خربة ليس فيها سوى البوم والأفاعى.

وعلى ضفة النيل مدينة بها مائتا بيت من الحصير وهي بلدة تشبه القرية وفيها جامع بلا منذنة، وبجانب هذا الجامع ضريح الشيخ رجابي، وهو قطب عظيم، وهذا الضريح فى غابة من أشجار الدوم وثمة ضرائح ثمانية وسبعين قطباً من الأولياء، ولكن أجهدنا القبط فلم نستطع زيارتها وإن كنا قرأنا سورة يس ومضيئا لطيتنا ومضيئا بين الصخور فى طريق ضيق من المرتفعات والمنخفضات ولقينا من سفرنا هذا نصبا حتى وصلنا أسوان.

أوصاف قلعة أسوان

يذهب المؤرخون المحققون إلى أن قلعة أسوان بناها عاد بن شداد بعد الطوفان لأنهم يسمونها دير عرياق وأنها دير عظيم، والمملك عرياق مدفون فى هذا الدير فى تابوت من النحاس وعلى الجوانب الأربعة لهذا التابوت كتابات بالعبرية ويسميه القبط عرياق بن عيوام ويقولون إن إدريس - عليه السلام - رفع إلى السماء فى عهد هذا الملك وفى زمان هذا الملك سجن هاروت وماروت فى بئر بمدينة بابل، وخلف عرياق فى الملك ابنه ألوخيم وكذلك ألوخيم مدفون فى هذا الدير، وخلف ألوخيم فى الملك ابنه خصيليم، وهو أول من بنى المقياس فى النيل عند أسوان وآثاره باقية إلى اليوم.

ثم قدم مصر الخليفة المأمون العباسى من بغداد وبنى المقياس فى مصر وخرّب المقياس الذى فى أسوان حتى لا يكون هناك مقياس بناه أحد سواه، وخصيليم هذا فرع النيل ترعاً، وفرش هذه الترع بالرخام وأمام مدينة أسوان هذه المنطقة من النيل أحجار فى حجم جثة الفيل، وقد سوى هذه الصخور وصنع منها سدّاً فى بلاد النوبة اثنتى عشرة قنطرة، ولم تبق من هذه القناطر اليوم سوى واحدة، وقد دمرتها الزلازل، وأسسها ظاهرة فى النيل، وظهر نوح فى عهد خصيليم هذا وقد ركب خصيليم هذا فى سفينة نوح عند الطوفان، وقد عمّر ثمانمائة سنة، ولذلك قال المؤرخون إن مدينة أسوان كانت قبل الطوفان لأن فيها آثار لخصيليم وأبيه ألوخيم وجده عرياق، وهذا بالعبرية مسطور على الصخور، ثم عمرها عاد ولكن خربها أبرهة بعد الطوفان وقد جاء ذلك على التفصيل فى كتب الخطط ومحمد بن إسحاق وتواريخ الشهابى رحمة الله عليهما،

ولكنى أحقق هذا فى يقين فأقول ما مجمله أنها بقيت بعد زوال دول ودول وهى مدينة قديمة، وقد فتحها عمرو بن العاص وهى التزام تابع لجرجا، ويتحصل منها أربعون كيساً كما أنها كاشفية تابعة لكاشف قوص ويتبعها ستون قرية يتحصل منها ومن توابعها المائة والخمسين ستمائة أردب من الغلال ولكن ليس فيها جند مستحفظون من أربع فرق وهى قضاء يدر مائة وخمسون كيساً وريعها السنوى ثلاثمائة قرش ويبقى لكاشفها بعد المصروفات خمسة أكياس، ولها قلعة عظيمة على ساحل النيل، وهى سامقة مشمنة الشكل بناها شداد ومحيطها ثلاثة آلاف وستمائة خطوة، ولها ثلاثة أبواب وفى داخلها حدائق وخمسائة بيت صغير للفقراء ولرئيس هذه القلعة مائة وخمسون جندياً، وفيها فرقة موسيقية ومخزن للأسلحة وعشرون مدفعاً، وهى الآن حد عظيم لأن حولها عرب عصاة، وبها جامع وسبع زوايا وثلاث مقاهٍ، وستمائة بيت وليس فيها حمام ولا خان ولا مكتب للصبيان ولا سبيل ولا أسواق ولا دكاكين ولكن تقام فيها سوق عظيمة كل أسبوع، ويجتمع فيها خلق كثير من جميع الأجناس يبيعون ويشتررون ويوجد فيها ما ليس له من وجود، وخارج القلعة ضاحية بها حدائق وبساتين وسبعمائة بيت وبعض هذه البيوت خربة ولكنها رمت وسكنت، كما أن فيها جوامع وزوايا ولكن ليس فيها سوق وبها بعض المقاهى المصنوعة من الخشب والأكواخ والدكاكين، وكانت بها فى ماضى الزمان على مسيرة ثلاث ساعات على ضفة النيل أبنية كأنها قصر الخورنق، وأعمدة لا حصر لها وضرائح عالية وخان وحمام وسوق للبرِّ وعمائر كتبت عليها طلاس، وكان هذه الطلاس قد كتبت منذ هنية، وقد اعتشت فى هذه العمائر الغربان والحمام والغربان فيها تنعق، وفى الشتاء تغادرها كل الطيور، ويأتى العرب ويسكنون هذه الخرائب، وجو أسوان لا بأس به، وفيها الأسلحة لا تصدأ وتبقى مصقولة ووجوه أهلها وردية ولاعتدال جوها كان الجمال فى فتياتها وفتياتها، أما شراب البوزه فيها فيبعث القوة فى الروح وشراب البوزه هذا مرغوب طيب.

باب الأبواب

إنها جزيرة خربة فى بوغاز الشلالات بأسوان، ويسمونها باب الأبواب وبما أن النيل يتشعب سبع شعب فثمة عدة جزر، وفى كل من هذه الجزر يؤكد الكشفيون على وجود معادن جديدة فيها النفط والقطران والكبريت والرصاص والكبريت المائى، وفيها حمم ماؤها حار يستشفى به، ولكن ليس فيها أثر للعمران، وعند فيضان النيل تغرق هذه الجزائر جميعاً ولا يبقى أثر لما فيها من معادن وحمم، ولا يستطيع استخراج هذه المعادن منها ويفيض النيل وتخضوضر الأرض فى مصر، وأهل الطب من أهل مصر لا يشربون من ماء النيل وإنما يحضرون الماء من بئر فى المطرية ويشربونه وإذا شرب الناس من النيل فى وقت الفيضان وهو أخضر تورمت أرجلهم مثل الطلومة وارتعشت أجسامهم نعوذ بالله، وأصل اخضرار ماء النيل واحمراره هو ما تجمع أمام تلك الجزر من النفط والكبريت والقطران ويتلون ماء النيل بألوان مختلفة ومنها تهلك الحشرات ولكنها تأتى ثانية، وتختفى فى الترع وهذا هو سبب اخضرار ماء النيل وجنوب أسوان تسمى:

ولاية علوى

إنها ولاية واسعة تمتد حتى الحيشة ودمبستان ولاعتدال جوّ هذه الولاية يتصف فتياتها وفتياتها بالجمال فلهم عيون كعيون الغزلان ويتزوج أعيان أسوان من عذارى ولاية علوى، ومن عذارى علوى من لم يبلغن المحيض ولكن يحملن وغالباً ما يمئن عند وضع حملهن، والعهدة على رواية أهل أسوان، ويذهب بعض المؤرخين إلى أن لقمان - عليه السلام - نبي وقيل إنه نبي أسمر اللون، ولد فى أسوان، كما أن ذا النون المصرى من أسوان وأصبح من صحابة الرسول ﷺ كما أن النبي إدريس - عليه السلام - ولد فى هذه المدينة، وقد زرت قبره وهو مدفون فى مغارة وقد مرغت وجهى الشاحب على أثر قدمه فى الأرض حين عرج فى السماء، وكل أثر لقدمه يبلغ ثمانية أشبار طولاً وعرض الأثر ثلاثة أشبار، وكأن هذا الأثر حفرة كالصندوق، وعندما ينزل المطر فإن حفرة أثر قدمه تمتلئ بمطر الرحمة والوحوش والطيور تشرب منه، وبجواره غار لقمان ومنه تفوح رائحة العقاقير، وهى رائحة طيبة ولم تنقطع هذه الرائحة من ألف سنة، فما من ريب

فى أنه نبيؑ؁ وذا النون المصرى من ذريته وكان طبيب النبى ﷺ؁ وأجيال الأطباء تنتهى إليه؁ وفى جنوب أسوان ولاية النوبة العظيمة ويسمونها باب النوبة.

ولاية النوبة

إنها أرض غنية ومعدن الزمرد فى جبالها؁ وتستخرج المعادن والزمرد منها ولذلك أهلها أثرياء منعمون وقد أمر حاكم جرجا باستخراج الزمرد؁ وأمر أن يصنع منه الكؤوس والأقداح وقبضات الخناجر ودبوس من قطعة واحدة؁ ولكثرة ما استخراج من الزمرد أصبح على بك عريض الثراء واسع الدنيا؁ وإن كان استخراج الزمرد يتكلف نفقات باهظة؁ وفى أرض أسوان أربعون نوعاً من المعادن ولكنهم لا يعرفون كيف يستخرجونها؁ وجنوب النوبة أرض خربة؁ وبالقرب من أسوان شاة تلد فى السنة ثلاث مرات؁ وفى كل مرة تلد حملين وهذا بسبب لطافة الجو: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة: ٢٠].

عجيبة

وفى شمال أسوان شجرة منقطعة النظر وهى قائمة منذ عهد بنى إسرائيل وهى تثمر صيفاً وشتاء ويسقط ورقها كل سبع سنوات ثم تورق من جديد؁ وتسمى شجرة الخط؁ وهى شجرة لها الشهرة فى بلاد أسنه وأسوان وسودان وفونجستان ونوبة ودومية وعلوى واحبش ويحتضن جذعها عشرة رجال ولها أربعون فرع يحتضن كل شعبة منها خمسة رجال؁ إنها دوحة عظيمة عالية؁ يمكن أن تظل أربعين ألفاً من الغنم واتفق ذات مرة أن أحد الزنادقة استظل بها فسقطت عليه ورقة خضراء منها فأخذها الزنديق؁ فأخذ العجب منه كل ماأخذ من ذا الذى أنبت الورق على الشجرة فسقطت من الشجرة عليه ورقة أخرى بأمر الله؁ وقد كتب على هذه الورقة من أنبت الورق على الشجر هو الذى شق السمع والبصر فى وجه البشر؁ وفى التو نطق الزنديق بالشهادة ثم زفر زفرة وفاضت روحه وله قبر فى ظل هذه الشجرة ويسمى قبر الشيخ الزنديق؁ ويزور الشجرة الخواص والعوام والآن أوراقها مخضوضرة؁ وهى كذلك إلى ما شاء الله؁ ولكن لا وجود لكتابة على أوراقها؁ وهى فى الطريق من أسوان إلى النوبة فى مرج واسع الأرجاء وهى تبعد عن أسوان بربع ساعة.

وقدم السلطان قايتباي من مصر فأمر بترميم قبر الشيخ الزنديق وأنشأ صفة ومحراباً له وكتب على عتبه تاريخ هذا الترميم.

وفى أسوان يستخرج أربعون معدناً، علاوة على الملح والنظرون وشمع العسل والصابون، والصابون كلمة عربية، وتطلق على ما يصنع من الأعشاب والنباتات، ويوضع في الأكياس، وإذا غسل به الثياب أصبحت بيضاء، إنهم يأكلون شمع العسل من شدة الحر، وإن النحل يصنع العسل وإذا ما نزل غيث الرحمة تسد خلايا النحل، وينمحي العسل بالمطر ويخرج شمع العسل ويجمع ليباع، إنه أكثر بياضاً من الكافور وله رائحة كرائحة العنبر ولهذا الشمع أربعون فائدة، وإنه ينفع في ألم الوسط والصداع والمغص، وإذا تناوله أحد فإن شمع العسل يساعد في هضم الطعام، ويصلح المعدة ويخلص من غازاتها، وهو مقو ويزيد في قوة البصر ومن تناوله أربعين يوماً لم يبق في جسمه أخلاط، ويتورد وجهه، ويصح بدنه وشمع أسوان كثير في سوق الفحمين في مصر تلك هي خواصه.

ومن العجائب

أن عموداً يوجد على ربوة من الرمل في شرق أسوان على مسيرة ربع ساعة شرقاً ويرتفع مائة ذراع، وعند قمته صورة إدريس - عليه السلام -، وكأنما يجلس حبشى على قمته وكأنه حى ويتسم وهو يرفع أصبع الشهادة كأنما يشير إلى السماء، وقد ولد إدريس في أسوان، وبعث فيها ثم عرج به إلى السماء منها، فدخل أمته الحزن وجعلوا يبكون ويتجولون في ذهول وحيرة إن إبليس اللعين ظهر لهم في صورة شيخ، وإنهم يبكون ويتحجبون لفراق إدريس وفي التو أمرهم الشيطان بأن يرسموا صورة إدريس، وعلمهم أن يسجدوا وبذلك كفوا عن النواح والنحيب ومرة كل عام يأتى إلى هذا العمود جميع الخلائق ويسجدون عنده، وإن إبليس الشيطان اللعين يمثل تلك الصورة ومن هذه الصورة كان يُتَنَبَّأُ لهم عما في الغيب وكانت هذه حالهم إلى أن ظهر النبي ﷺ، ثم انتهى هذا الأمر، والآن يسمونه رمال الصنم، ويتجه القبط نحو الشرق، ويركعون عند هذه الصورة.

ومن العجب

أنه إذا ما دفن أحد في هذه الربوة من الرمال أصبحت عظامه حجراً بعد سبعة أيام، وهذا من عجيب صنع الله يفعل الله ما يشاء بقدرته ويحكم ما يريد بعزته: ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ {الأعراف: ٥٤}. وقلعة أسوان هذه على شاطئ النيل لها سور عظيم.

حائط العجوز الساحرة

كل حجر في هذا الحائط حجمه من أربعين إلى خمسين ذراعاً، وكأنه سد الإسكندر، إنه من قطعة واحدة، وفي أسوان علاوة على هذا البناء في خرائب أسوان آثارٌ لعمائر يحار عقل من يشاهدها وعليها كلام النبي ﷺ عن شهادة على - رضى الله عنه، وكرم الله وجهه - كما أن كلاماً لعلى في الجفر.

وقد أخذت ذلك من مختصر كتاب مفتاح الجفر للشيخ العلامة كمال الدين أبو سالم محمد بن طلحة غفر الله له، وقد ذكر على - رضى الله عنه -: (أن أشراف قيام الساعة عند اقتراب آخر الزمان أن أسوان سوف تتخرب بعد أن عمرت من قبل) وهذا كلام على - رضى الله عنه -، ومن قوله أيضاً: (إذا عمرت أسوان من قطر مصر في آخر الزمان بالياء ثم العين يظهر بمصر الخصيان، وتحكم النسوان، وتفسد عليه السلطان، وتكثر الغربان، ويختل نظام صاحب الديوان، وتقوى شوكة الجيم، وذلك إذا حصل القران في برج الهواء، ويعثر ما في القبور، وحُصِّل ما في الصدور، وصار الأمر مأمور) وسبب هذه الإشارات ما نقل في تاريخ ابن مهدي أنه أن عمرو بن العاص وهو عامل مصر عند فتوحها كتب إلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - يشره بفتح مصر وذكر له صفتها وعدة حصونها المشهورة، وأن من جملة حصونها بالوجه الجنوبي قلعة تسمى أسوان على قرب نيلها حصينة مانعة رأينا وجه الصواب في هدمها حتى تنقطع أطماع الكفار منها فهدمناها حجراً حجراً فلما بلغ الكتاب إلى أمير المؤمنين عمر - رضى الله عنه - فقراه واستوفاه ثم قال حضرت على - رضى الله عنه - نعم بذلك أخبرني رسول الله ﷺ وعندى خبر هذا واستعمر في آخر الزمان عمارة حصينة على يد

ياء ونكره ثم عين، ولم يصرح باسم أحد غير أنه - رضى الله عنه - أشار إلى حرفين صديقين لا منافرة بينهما وهما الياء والعين فالياء حرف ترابي والعين حرف مائي، ومن المعلوم أن الماء والتراب صديقان، وهما أعظم آلات العمارة، فإنه يفهم من قوله بالياء ثم العين أن مراده تعريف اسم من يتولى أمر عمارتها صدق على الرضى السخى. وفي أسوان كثير من رموز لكتوز، لأن أسوان بلد من سبعة بلاد على وجه الأرض، لقد شاهدت أسوان ولكنى لم أجد فيها وقتاً لراحتي لأن فى أرضها مئات الآلاف من كبار الأولياء والشهداء والصحابه الكرام الذين قدموا من مصر مع الفتح، ولهم قبور لا سبيل إلى حصرها لكثرتها، وقد قرأت سورة يس لأرواحهم الشريفة، وشاهدت فى جنوب أسوان على ضفة النيل سدود خيط العجوز ورأيت التماسيح فى جزر الشلالات، وبعد أربع ساعات وصلنا إلى شلال المضيق.

أوصاف شلالات المضيق

إنه لشلال عظيم، وهو مشهور لدى العرب والعجم والروم، وقد سبق أن وصفناه، وهذا الشلال به صخور يضرب لونها إلى الشهبه. وفى هذه المحلة أعشاش الصقور والنسور والغربان، وهناك جبل مهيب مخوف، ويعبر التجار هذا المضيق ويذهبون إلى القرى، والصخور فى هذا المضيق متقاربة، وتلاطم مياه النيل يصم الأذان، ورشاش ماء النيل يجعل الجو ممطراً ويصاب من على مقربة منه بالكل، وإذا حل الشتاء وغاض ماء النيل ظهرت أحجار كأنها قباب الحمامات، ويدفع الماء الإنسان من صخرة إلى صخرة ويستطيع أن يعبر بين الضفتين، وفى سالف الدهر حينما كان هذا المضيق مسدوداً، كان النيل ينشعب إلى رافدين فيجرى فى ترعة إلى إقليم الحبشة وفى الأخرى إلى إقليم علوى واختلط ماؤه بماء البحر الأحمر بواسطة السواقي على الترع التى تتجه إلى إقليم الحبشة وأثار ذلك اليوم باقية فى موضعها.

وبعد الطوفان أحاط سيف بن ذى يزن بعلم الهندسة وشتى العلوم والفنون، وأنس برأى الكاهنين صفوايم ومحرايم؛ فشق فى الجبال شقاً، أما سبب جريان النيل إلى مصر الآن فهو مردود إلى سيف بن ذى اليزن، وكان جريان النيل إلى مصر سبباً فى

عمرانها وخصوبة أرضها وأصبحت الحبشة والمغرب صحراء، وقد اجتمع المؤرخون على القول بهذا، وقد رأيت أثر جريان النيل فى سالف الدهر حفراً فى الأرض، وكانت منطقة الشلال قديماً معمورة فكان فى أسوان حدائق وجنات ألفافاً، وفيها كذلك أثر للعمائر.

وقد دعا موسى - عليه السلام - الله على الفراعنة والكهنة والسحرة فى هذا المكان ومصداق ذلك قوله تعالى: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ [القصص: ٨٨]، فتخربت عليهم ماتتا بيت.

وثمة جامعان عظيمان قديمان بها، ولكنهما مع ذلك لا يخلوان من المصلين، وليس لهما بهاء سائر الجوامع، ومنهما جامع سيف بن ذى اليزن والآخر جامع عمر - رضى الله عنه - ولا وجود لسوق ولا خان ولا حمام، وخرير النيل هناك من الشدة بحيث لا يمكن السكنى إلى جانبه كما أن الواحد لا يسمع كلام الآخر، ولكى يمكن لإنسان أن يكلم آخر كلاماً يسمعه فينبغى أن يرفع صوته مثل الجاوش، ويقال إن سبب هذه الجلبة هو أن للنيل رعداً، وقد غادر السكان هذه المنطقة لأن رشاش النيل يهبط عليهم كأنه الرزاز ويصيب ثيابهم بالبلل.

أوصاف قلعة أبواب

بناها ذو اليزن إنها رباط حصين مستدير على المضيق فى الجانب الشرقى من النيل فى أسوان، وفيها يسكن قبائل القرّح وفيها خمسمائة بيت بعضها من الحصار وبها جامع قديم، وليس للقلعة رئيس ولا جنود، وقديماً على الصخور التى أمام هذه القلعة كانت تحصى الرسوم من السفن الرائحة والغادية، وتلك السفن كانت تقف أمام السلسلة التى بين القلعتين حتى تدفع الرسوم المستحقة عليها، وغادرت قلعة أبواب وانطلقت جنوباً على ضفة النيل، ومضيت فى طريق كثير الأحجار وسرت فيه ست ساعات، حتى وصلنا:

قبائل كنوزين

نزلنا ضيوفاً فيها على الشيخ على الواسطى، أما أصل تسمية هذه القبائل بهذا الاسم

فهو أنهم عثروا على كتزين في أراضى أسوان الخربة، وقد قسموا الكتزين بالسوية عليهم، وجاءت قبيلة عربية من بعد على أثرهم وطلبت نصيبها إلا أنهم لم يعطوها من الكتزين شيئاً؛ فنشبت الحرب بينهم عبوساً شعواء، إلا أن رجال القبيلة الذين طلبوا نصيبهم أعملت السيوف والرماح فيهم فسميت القبائل المنهزمة بقبائل القرح وسكنوا جزيرة الشلال وهم الآن على مذهب الإمام مالك، ويدعون أنهم من ذرية ابن ذى اليزن ولهم سبعة آلاف محارب، وفي أول ليلة لنا هناك ضيفونا وقدموا إلينا الذرة ولحم الإبل ولبن النوق قطعنا وشربنا، وهذه القبائل تمضى إلى الحبشة فى الربيع، لأن منطقة الشلال جبلية متقاربة والزروع بها قليلة نادرة وهؤلاء القوم لديهم كثير من الأنعام فلذلك يمضون إلى الحبشة طلباً للمرعى، ثم مضينا خمس ساعات وبلغنا قبيلة مهريه.

قبيلة مهريه

وحللنا ضيوفاً على الشيخ حامد مهري، وبها ألف وخمسمائة فقير من سمر البشرية وثوبهم لا يعدو أن يكون ما يستر عورتهم، وهم على مذهب المهريه وهم ينكرون الحشر والنشر، ومضينا على ضفة النيل فى طرق ذات أحجار لا تتسع إلا لمرور رجل واحد وسرناً بينما يتبعنا الخدام، وقطعنا هذه الطرق سيراً على الأقدام، وقد شق هذا الطريق بن ذى اليزن ولا طريق سواه وبعد ساعتين بلغنا قبائل كلافيش.

قبائل كلافيش

ومعنى كلافيش: الشىء القليل، وليس لهم خيام، إنهم جميعاً يسكنون الكهوف، وقد دلنا شيخهم على غار فمضينا بخيولنا إليه وانصرفت عنا شدة القيظ، إنه غار بارد النسيم، وفى هذه المنطقة الصخرية ثلاثة آلاف من العرب المتمردين، ولهم كثير من المعز وليس لديهم أنعام أخرى وطعامهم الذرة ولحم الجمل والتيش وهو كباب التماسيح والمعز، وهم يجامعون أنثى التماسح ويقولون إنهم حين يجامعون أنثى التماسح يتحلب ريقهم وأنهم قوم جبابة أشداء من أكل لحم التماسح ويستخرجون من مرارة التماسح حجراً، وإذا أمسكوا بهذا الحجر استطاع الواحد منهم أن يجامع زوجته أربعين أو خمسين مرة، وإذا كان هذا الحجر كذلك عند نساتهم فإنهن كذلك لا تهدأ شهوتهن،

وهذه البقعة لا وجود للترع فيها ولذلك ليس لديهم إلا البرسيم والتمر، وعندهم من نبات الذرة ما هو أحمر اللون وهم قوم صيادون يمشون إلى جبال الحبشة، ليصطادوا الفيلة، وليجمعوا سن الفيل ووحيد القرن ليأخذوا قرنه لبيعوه، ذلك ومضينا عنهم على ضفة النيل جنوباً وشاهدنا جبالا شامخة وصخوراً ضخمة وبعد عشر ساعات بلغنا عشائر أبو حور.

عشائر أبو حور

إنهم قوم من العرب سود البشرة وزنوج وفقراء ولا يعرفون ديناً ولا حشراً ولا نشراً، وقد تجاوزنا هذه العشائر، ومضينا خمس ساعات وبلغنا قبيلة سنّيال.

قبيلة سنّيال

لهذه القبيلة في الصحراء متراخية الأرجاء أحيّة وخيام، وهم ألفا رجل من المسلمين ولأهم من العرب فإن وجوه نسائهم مكشوفة ومكثنا في خيمة شيخ العرب عبد المجيد وقدموا إلينا الأنفحة، ثم ذهبوا لنا ثلاثة خراف، وأكرمونا إكراماً عظيماً، وأعلفوا خيولنا الذرة البيضاء، ورأينا جندياً مصرياً يلبس حمر السراويل فاطمأنت قلوبنا لعله كان جندياً من إبريم وقدم إلينا بعض رغفان فأكلناها لأن ما كان لدينا من خبز نفذ فأكلنا الزبد بالخبز فكانما ردت علينا روحنا، والنيل في هذه المحلة ينقسم إلى مضايق، ثم دخلنا في إقليم إبريم في طريق حجرى ومضينا فيه سبع ساعات جنوباً بين الصخور حتى وصلنا:

بلدة كُوشْتَامِينِه

بها مائتا بيت من قصب، وأهلها مطيعون منقادون، وبها زاوية ومقهى وفيها قبيلة من عرب كنوز تسكن الخيام، ومضينا جنوباً خمس ساعات فوصلنا:

بلدة كوزت

وفيها ثمانية وسبعون بيتاً من قصب وزاوية، وليس بها مقاه ولا حانة للبوزة، وبها أيضاً قبيلة من عرب كنوز تسكن الخيام، وهذا الموضع هو حد عرب كنوز وهم لا يمشون إلى إبريم لأن النيل في هذه المحلة على ضفتيه مروج تزرع بها اللوبياء والبطيخ وبعد خمس ساعات بلغنا بلدة سبع.

بلدة سَبُوع

نزلنا عن خيولنا لنشاهدها، وسقنا الخيول إلى الصحراء وتجولنا ساعة فيها لنشاهدها وعلى ضفة النيل آثار فيلة من الصخر، وأسود نحتت من الحجر إذا شاهدها الإنسان دخله الخوف الشديد ويظن أن هذه الأسود أسوداً حية، إنها تماثيل متقنة الصنع وعلى ضفة النيل كذلك جمالٌ من الحجر الأسود وتنانين لها سبعة رؤوس منها المنكس وبعضها ما ساخ في الرمال إنها تنانين عجيبة وثمة أعاجيب أخرى، ولكن ليس في الإمكان ذكرها وربما تحارب موسى - عليه السلام - مع فرعون في هذه المنطقة، وقد صنع سحرته من سحرهم هذه العجائب، وقد أوحى إلى موسى آية: ﴿فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ﴾ [الشعراء: ٣٢]، وألقى موسى العصاة المتعددة الرؤوس فإذا هي حية تسعى فابتلعت الحية ما صنع السحرة والكهنة بسحرهم من أسود ونمور وتنانين؛ فهزم فرعون وتعلق بأذيال الفرار، ولعل ما رأينا من هذه التماثيل هي بقايا هذه الوحوش التي صنعها سحرة فرعون، وهي التي أصبحت من بعد حجراً بأمر الله؛ ويسمون هذه البقعة (سَبُوع) لوجود الأسود بها وفي العربية مائة وثمانون اسم للأسد منها (سَبُوع) وقد شاهدنا هذه البقعة وتجاوزناها ومضينا أربع ساعات جنوباً، على شاطئ النيل واجتازنا الصحارى حتى وصلنا:

وادي العرب

اسم محلة واسعة، وهي سهلٌ ذو مروج، ويجتمع جميع العرب فيه مرة كل عام، وفيه يدوم السبيع والشراء سبعة أيام وسبع ليال، ولذلك يسمى وادي العرب، وعبرنا أراضي خصبة في الجنوب وبعد أربع ساعات بلغنا تخت أزرق جادو.

أوصاف مدينة تخت أزرق جادو

بناها فرعون أزرق جادو وبعده فتحها ذو النون ثم استولى عليها القبط ودامت في حوزتهم مئات السنين، ثم فتحها الأسود بن مقداد قائد عمرو بن العاص، ثم استولى عليها أهل بربرستان وفونجستان، وفي عهد السلطان سليمان كان والى مصر الطواشي سليمان باشا فاتح الهند واليمن وأخذ ميناء ديوباد الهندي من البرتغاليين والفرنجية

وقدمها إلى ملك الهند، ومضى إلى الحبشة فى أسطول وجعل على رأسه أوزدمر باشا وأمره أن يفتح الحبشة ومنها عاد إلى مصر، ومن مصر خرج أوزدمر باشا فى جيش كموج البحر ففتح هذه المدينة، وقلعة إبريم، واستولى عليها ملك الفونجستان، وفى هذا العصر ظلت هذه المدينة فى حوزة آل عثمان، وهى تابعة لحكم جرجا وكاشف إبريم الآن مقيم بها، ولكنها كانت تحت حكومة أخرى عند فتحها تحكمها، وكان فيها منذ أربعين عاماً فى حكم جرجه ثلاثمائة جندى وخمسمائة جندى من الفرق السبع ويتبعها جميع القرى وهى التزام يدر مالا وغلالا، وكان يقوم بجمع المال والغلال ويقدمه لجنود القلعة والمستحفظين.

وهى قضاء يتحصل منه مائة وخمسون أقة، وبها مفتى على المذاهب الأربعة ونقيب أشراف، ولكن ليس بها أعيان، وعلى شاطئ النيل ألف ومائة بيت صغير، ولا وجود فيها لقصور وأعلى الأبنية بها بيت قائد الفرق السبع والچورباجى وشكرباره خاتون والمصاحب على أغا وبيوت للحراس هنا وهناك، وبها عشرون محراباً تؤدى فيها صلاة الجمعة علاوة على الزوايا، وليس فى هذه المدينة خان ولا حمام ولا سوق للبز، ولكن فيها ست مكاتب للصبيان وسبعة سبل وخمسة عشر دكاناً وثلاث مقاه وستة حانات للبوزه، لأن جو هذه البلدة مناسب فى شدة الحر تطرب البوزه الجسم كما تدفع الجوع والعطش لشربها ويصنعون فيها بوزة الذرة كأنها ماء الورد ويشرب البوزه الكبار والصغار، ولكن أكثرهم ضيق النفس وهم سمر البشرة لأن الحر فيها شديد، وماكولات ومشروبات هذه المدينة البوزه والذرة وماء النيل وشراب البلح وما سوى ذلك من مأكولات ومشروبات فىأتى إليها من جرجه، وكانت هذه المدينة مدينة عظيمة فى قديم الأيام، ولذلك فإن بها آثاراً تدل على عظمتها، وداخل وخارج هذه المدينة كثير من الضرائح، لأولياء مشهورين وقد زرنا ضريح الشيخ (هو) ولأن هذه المدينة تابعة لولاية أزرق جادو، فنساؤها يشتغلن بالسحر ويسحرن الرجل حماراً، وقد ابتلى بهذا كثير من الرجال، وقد سحرن حتى أحد متفرقة الباشا فإذا هو بين الرجال فى المقاهى وحانات البوزه حمار، وقد مكثت فى قصر الكاشف يومين، ثم مضيت لمجىء كاشف إبريم، ومضيت جنوباً على شاطئ النيل فسرتُ لمدة ساعتين وبلغت قلعة إبريم القديمة.

أوصاف قلعة أبريم القديمة

بناها المقوقس ملك القبط، وقد حاصرها وفتحها عمرو بن العاص وكعب الأحمق وأبو عبيدة بن الجراح وجابر الأنصاري وأبو هريرة وسارية الجبل وأسود بن مقداد وأمثالهم من الصحابة الكرام، إنها قلعة حصينة متينة وقد بناها شداد على ربوة مشرفة على النيل وهي صغيرة وحصينة وخماسية الشكل ومحيطها ثمانمائة خطوة، ولها باب واحد مفتوح على الجهة الشرقية، وفي داخلها ثمانون بيتاً صغيراً وكبيراً، وفي وسطها جامع قديم الطرز ذو منارة، إنها لسليمان خان، لأن في عهد سليمان تم الاتفاق مع البربر والفونج على حيلة للاستيلاء على هذه القلعة، ودخلت في حوزته ومن بعد صار الطواشي سليمان باشا والياً على مصر؛ فجعل أوزدمر باشا قائداً له، ففتح القلعة قهراً في عشرة أيام، وقطع رؤوس من فيها من البربر والفونج فأصبح لونهم أسود، وفي هذه القلعة أقيم جامع سليمان خان، وليس فيها سوق ولا حمام ولا خان، ولكن للقلعة رئيس ومائة جندي وفرقة موسيقية ورئيس القلعة طبق قانون سليمان لا بد أن يكون من طائفة المتفرقة، ويأتي من مصر في كل عام ثلاثمائة جندي كما يأتي إلى الكاشف ثلاثمائة مستحفظاً، وهم يحصلون على مال الدولة والغلال ولهم أقلام وأفراد ويأخذون علوفة قدرها أربعون كيساً سنوياً من حاكم جرجه إنهم قوم شجعان، إنهم يتحاربون ليل نهار كما يحاربون مجرمي فونجستان، ومخزن الأسلحة في القلعة مخزن عظيم ولهم أربعون مدفع وليس للقلعة خندق لأنها قائمة على أرض صخرية إن جوها لطيف، ولكن في جنوب هذه المحلة تحرق شدة الحر بيوتاً للفقراء من القصب والحصير، ولكن بحمد الله أن شدة الحر لا تؤثر على الإنسان، ويجب التحرز من البرد في وقت السحر، وعلى الرغم من أن جميع الناس يأكلون من خبز الذرة إلا أنه في هذه الديار ينفعهم كثيراً، ويقيهم من مرض يصيبهم بالإسهال ثم الموت، وليس في هذه الديار طاعون، وأكل خبز الذرة يشفي من الإسهال، وأعيانهم يلبسون قميصاً عليه شال أما متوسطو الحال فيلفون حول وسطهم منزراً، وعليه منزر آخر، أما الفقراء فيلفون حول وسطهم فوطه زرقاء ويمضون عراة أما نساؤهم فيأترزن بإزار أبيض وأسود وعلى

رءوسهن خمار أسود وليس فى تلك الديار جميل ولا جميلة لأن بشرة أهلها شديدة السمرة والبعوض كثير إلى حد أنه يقلق راحة النوم ليلاً، ولذلك ينامون فى شال رقيق اللهم عافنا، وإذا ما تجاوز أحد حدود ممتلكات الدولة العثمانية استوجب القتل أو نفى إلى إبريم، وصيف هذه المدينة معتدل ولشدة القيظ ينفون إليها المجرمين.

وأبريم تقع فى نهاية حدود ممتلكات الدولة العثمانية، وفى الجانب الشمالى من تلك الحدود قلعة أزاق، أما فى الجهة الشرقية فنهاية حد تلك الممتلكات العراق أما فى الجهة الغربية فحدودها مدينة بلغراد.

وثمة قلعة تسمى:

قلعة جاوغه

ولكنها فى ولاية لطيفة جوها كأنها حديقة إرم فليس فى أبريم حدائق ولا خلائق، ولكن فيها جبالا سودا، وإن وجد فى هذه الولاية حدائق يكثر فيها الشامام والبطيخ، وكل كيله من الذرة فيها تنبت مائة وخمسين كيله، ولذلك لا يزرعون إلا الغلال، إنهم يزرعون الذرة البيضاء وحيواناتهم تعلف الذرة، وهذه البلدة تقع فى نهاية الإقليم الأول، إنه على حد قول بطليموس على عشرين درجة وسبع وعشرين دقيقة ويطول النهار فيه ثلاث عشرة ساعة وثلاثين دقيقة أما طول الإقليم الثانى من الشرق إلى الغرب على حد قول الجغرافيين فهو ألفان وأربعمائة فرسخ، وعرضه مائة وستة وثلاثون فرسخًا وفى هذا الإقليم سبعة جبال عظام، وهى مقاليد الأرض كما أن فيه ست وثلاثين صحراء لا يسكنها إلا قلة من الناس، وأرضها ممتلئة بالحشرات، وفيها ألفا مدينة، خمسون منها مدناً عظيمة، وفى جانبها الشرقى أولاً بلاد الهند والسند ومنصورة وهيزة وكندة وجزيرة العرب، ونجد وتهامة ويشرب والحجاز وديار فلزمك، وفى الجانب المقابل من بحر القلزم الحبشة وزيلع وسواكن وفى أرض بربستان قلعة إبريم ومديتها ومدينة دونقلا تخت بربره، وبها تنتهى الأرض الأفريقية والمصرية والبقلية ومقابل المغرب كفار البرتغال وهم على شاطئ البحر المحيط، وقد طوفت بكل هذه البلاد قدماء الحكماء طيلة عمرهم واستخدموا علم الإسطرلاب وعرفوا نعم الله وألفوا كتبهم وهى

أطلس، ومينور، وجغرافية وباريه وقولونيه وكتبوا عن أشكال الدنيا وقد طوفت أنا كذلك في البلاد والقرى التي في الممالك المحروسة ووصفت قراها وقصباتها ومدنها العظيمة وجبالها وأنهارها ومنازلها شمالاً وجنوباً ولم أذكر إلا ما تمس الحاجة لذكره ونقلت المقال إلى الحال، وذكرت أوصافها وأشكالها ونسجت على منوال أستاذنا نَقَّاش حِكْمِي زاده على بك ولم يتيسر لنا زيارة بلاد الفونجستان بعد فما استطعنا الوصف عنها وأقاليم إيريم هذه تميل سبع درجات عن جهة الشمال.

وقد مكثنا في قصر الكاشف أياماً ثلاثة، وشاهدنا القلعة والمدينة ومن أجل السفر إلى فونجستان تزودنا بالزاد والنوق وخمسة عشر جواداً يحملون الشعير وسائر ما هو لازم للسفر، وقد تبادل الكاشف ورئيس القلعة والقائد والأعيان رسائل المودة مع ملك فونجستان وأمراءها وفي هذه المحلة تجار فونجستان وكانوا في رفقتنا، وركبوا ثلاثمائة حمار، ومن جند القلعة سايرنا كذلك سبعون جندياً يحملون البنادق، وألحق بنا الكاشف أربعين رجلاً، وجملين وهجيتاً وفرساً، وودعنا جميع أحببنا في إيريم، وخرجنا من إيريم قاصدين فونجستان مشاة وركبائاً، وبعضنا يركب الجمال والبعض يركب الخيل والبعض الثالث يركب الحمير، وكان معنا من إيريم ثمانمائة رجل يحملون السلاح.

* * *